

الدكتور

بسيوني محمد الفخام فيروز

بلاغة تطبيقية  
دراسة لمسائل البلاغة  
من خلال النصوص

# بلاغة تطبيقية دراسة لمسائل البلاغة من خلال النصوص

تأليف

الدكتور

لسينوني محمد الفخام فينود

~~أستاذ~~ أستاذ البلاغة والنقد  
بكلية اللغة العربية بالقاهرة  
جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩١ م

مطبعة الحسين الإسلامية  
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر  
تليفون ٩١٩٧٢٤



بسم الله الرحمن الرحيم

## مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ،  
والصلاة والسلام على نبينا محمد ، الرحمة المهداة ، والنعمة  
المسداة ، والسراج المنير ، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على  
الدين كله ولو كره المشركون ، وآتاه جوامع الكلم ، فجاهد - ﷺ -  
فى سبيل تبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، ونصح الأمة ، والدعوة  
إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . . صلوات الله وسلامه عليه  
وعلى آله وأصحابه أجمعين . . . أما بعد

فدارس البلاغة فى حاجة الى أن ينظر فى التعبيرات الجيدة ،  
والأساليب الراقية ، ويتأمل هذه التعبيرات ، وتلك الأساليب ، ويصل  
بل ويدرك مواطن الجمال بها ، فينمو بذلك ذوقه ، وترقى أحاسيسه  
وتسمو مشاعره . .

ولو وقف الدارس عند حد القاعدة والضوابط البلاغية ، ولم  
يتجاوزها الى النصوص الرفيعة ، ليتعرف من خلال هذه النصوص  
على مسائل البلاغة ، لجف ذوقه ، وتبلدت أحاسيسه ، وانحطت  
مشاعره . . .

ولذا رأينا أن نحرك الدارس البلاغى ، ونوجهه نحو النصوص  
السامية ، والتعبيرات الراقية ، ليتعرف على مسائل البلاغة بها ،  
ووضعنا له فى هذا المؤلف :

١ - جملة من الآيات القرآنية الكريمة .

٢ - عدداً من أحاديث النبى ﷺ .

٣ - نصوصاً من الشعر العربى الجيد .

وغايتنا من هذا المؤلف أن يقف الدارس البلاغى على ما فى هذه النصوص من المزايا والأسرار والمسائل البلاغية ، فهو بمثابة تطبيقات لما يدرسه الدارس من مقررات بلاغية . . .

وما من ريب فى أن الدارس عندما يقف على المسائل والأسرار والمزايا البلاغية من خلال هذه النصوص ، فسيكون لها أثر ووقع فى نفسه ، وتقر بذلك الضوابط البلاغية وترسخ فى أعماق الأنفس . . .

فإنه عز وجل نسال أن يحقق هذا المؤلف غايته المرجوة ، وأن ينتفع به دارسو العلم ومحبو المعرفة ، وأن يجزيينا به خير الجزاء ، ويهدى إلى سواء السبيل ، إنه خير مسئول ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . . .

### المؤلف

بسيونى عبد الفتاح فيود

~~الأستاذ المساعد فى جامعة الأزهر~~

أساز البلاغة والنقد جامعة الأزهر

# القسم الأول

## من هدى القرآن الكريم

١ - من أول سورة ( البقرة ) الى قوله تعالى : « ولو شاء الله

لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير » .

الآيات : ١ - ٢٠

٢ - من قوله تعالى فى سورة ( آل عمران ) : « يا أيها الذين آمنوا

لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » إلى قوله تعالى : « ومن يرد

ثواب الدنيا نُؤتِه منها ومن يرد ثواب الآخرة نُؤتِه منها

وسنجزي الشاكرين » .

الآيات : ١٣٠ - ١٤٥ .

٣ - من أول سورة ( لقمان ) إلى قوله تعالى : « هذا خلق الله

فأورنى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين »

الآيات : ١ - ١١



قال تعالى : « ألم • ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين •  
الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون •  
والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم  
يوقنون • أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون • إن  
الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون • ختم  
الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب  
عظيم • ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم  
بمؤمنين • يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم  
وما يشعرون • فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب  
اليم بما كانوا يكذبون • وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا  
إنما نحن مصلحون • ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون • وإذا  
قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء إلا  
إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون • وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا  
آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون •  
الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون • أولئك الذين  
اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين •  
مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله  
بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون • صم بكم عمى فهم لا  
يرجعون • أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون  
أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين •

يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير» (١) •

تتناول هذه الآيات الكريمة بيان صفات المتقين ، الذين آمنوا وأخلصوا دينهم لله ، وما أعد لهم من جزاء ، وقد جاء الحديث عن المتقين ، وتجلية صفاتهم ، وبيان جزائهم ، عقب ذكر القرآن الكريم والإشارة إلى كماله ، وأنه من عند الله لا ريب فيه •

وبعد قصة المؤمنين تأتي قصة الكافرين ، فتبرز الآيات أنهم أصروا على الكفر والعناد والمكابرة ، وأنه قد ختم على قلوبهم وسمعهم وجعل الله على أبصارهم غشاوة ، فأنى لهم أن يؤمنوا ، وتختتم قصتهم بأن الله قد أعد لهم عذابا عظيما « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » (٢) •

ثم تأتي قصة المنافقين فتبرز الآيات الكريمة أحوالهم وتجلي مواقفهم المريبة ، وصفاتهم التي جبلوا عليها ، وتذبذبهم « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » (٣) وتبين بوار تجارتهم ، وتضرب الأمثال التي توضح أحوالهم ، وتعالمهم عن الحق ، أما جزاؤهم فهو العذاب الاليم ، لأن الله تعالى محيط بهم ، ويستهزئ بهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون ••

والذى يعيننا فى هذه الآيات الكريمة ، ونريد إظهاره وبيانه هو الجانب البلاغى ، نريد تجليته وإيضاحه ، والكشف عن الأسرار والمزايا التى تكمن وراء التراكيب فى الآيات الكريمة ، ونضع يد

(١) سورة البقرة : ١ - ٢٠ •

(٢) سبأ : ١٧ •

(٣) النساء : ١٣٤ •

القارىء على تلك المزايا ، ونوجه فكره وعقله نحوها ، فتتربى لديه ملكة التذوق والتأمل وحسن الادراك ..

بدأت السورة الكريمة بقوله تعالى : ( ألم ) وقد قال بعض العلماء فى شأن هذه الفواتح : « لكل كتاب سر ، وسر القرآن فواتحه » (٤) .  
وذكر الزمخشري أن هذه الفواتح أسماء لحروف المعجم ، وأنها من قبيل المعربة ، وسكون أعجازها عند الهجاء لأجل الوقف ، وعلل افتتاح السور بها بالإشعار بأن القرآن الكريم ليس إلا كلمات عربية معروفة التراكيب ، من مسميات هذه الألفاظ ، فهى كالإيقاظ وقرع العصا لمن تحدوا بالقرآن ، وبغرابة نظمه ، وكالتحريك للنظر فى أن هذا المبتلو عليهم وقد عجزوا عنه جميعا ، كلام منظوم ، من عين ما ينظمون منه كلامهم (٥) .

وعندما نتأمل هذه الفواتح فى القرآن الكريم نجد أن ما ورد بها أربعة عشر حرفا من حروف الهجاء ، فهى نصف حروف الهجاء وقد اشتملت على أنصاف أجناسها ، ففيها نصف الحروف المهموسة ، ونصف المجهورة ونصف الشديدة ، ونصف المرخوة ، الى آخر هذه الأجناس ، وباستقراء كلم القرآن وتراكيبه ، وجد أن الحروف التى لم ترد فى فواتح سورته قليلة بالنسبة لتلك التى وردت بها ، ونحن نعلم أن معظم الشئ وأكثره ينزل منزلة كله ، فكان الله عز وجل قد عدد على العرب الألفاظ التى منها تراكيب كلامهم ، وذلك لتبكيثهم ، وإلزام الحجة اياهم ، فسبحان من لطف كتابه ، ودقت فى كل شئ حكمته (٦) .  
وخلاصة القول فى هذه الفواتح ، أن ابتداء السور وتصديرها

(٤) تفسير الطبرى ١/٣٠٩ .

(٥) ارجع الى الكشاف ١/٨٣ ، ٩٣ ، ٩٦ .

(٦) انظر الكشاف ١/١٠٠ - ١٠٣ .

بها ، يجذب أنظار المعرضين عن القرآن اليه ، إذ يطرق أسماعهم  
لأول وهلة ألفاظ غير مألوفة فى تخاطبهم ، ينتبهون إلى ما يلقى  
إليهم ، ويتلى عليهم من آيات بينات ..

كما أن فى هذه الحردف التى استخدمت فى الفواتيح تنبيها على  
إعجاز القرآن الكريم ، فانه منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ،  
فعندما يعجزون عن الاتيان بمثله ، وهم أهل البيان ، وأرباب الفصاحة  
فإن ذلك يعد أعظم برهان على إعجازه ..

وفى قوله عز وجل : « ذلك الكتاب » استخدم اسم الاشارة  
الموضوع للبعيد ( ذلك ) للدلالة على التعظيم وبعد المنزلة ، تنزيلا  
للبعد المعنوى منزلة البعد الحسى ، والاشارة الى القرآن الكريم ،  
وأسلوب ( ذلك الكتاب ) أسلوب قصر طريقه تعريف المسند بال التى  
للجنس ، كما يقال : ذلك الرجل ، قصرا لصفة ( الشجاعة والرجولية )  
على اسم الاشارة ، أى : على المشار اليه ، اذ لا يخفى عليك أن  
المقصور فى هذا الطريق هو المقترن بال ، والمقصور عليه هو الخالى  
منها ، والمعنى : ذلك هو الكتاب الكامل ، فهو قصر للكتاب على ( ذلك )  
المشار به الى القرآن ، أى : قصر لصفة الكمال على القرآن لا تتعداه  
الى غيره من الكتب ، قالوا : الحصر إما على وجه الحقيقة ، فالقرآن  
هو الكتاب الكامل دون غيره ، وإما على وجه المبالغة لا تحقيقا ،  
وهذا ليس بشيء ..

فالأولى أن الكمال مقصور على القرآن قصرا حقيقيا ، وهذا لا  
يقدر فى كتب الله الأخرى ، فيقال بأنها ناقصة ، لأن هذا النقصان  
انما هو بالنسبة للقرآن ، فما عداه من الكتب فى مقابلته ناقص (٧) .

وجملة ( ذلك الكتاب ) جملة مستأنفة استئنافا بيانيا ، أو متعلقة بما قبلها ( ألم ) خبر له ، والأولى جعلها جملة مستقلة ، مبينة لما قبلها ، ويكون قوله : ( ألم ) خبرا لمبتدأ محذوف تقديره : هذه ألم ، تنبيها للعاجز ، ولفت الأنظار الى القرآن كما بينا ..

وقوله تعالى : ( لا ريب فيه ) نفى للريب عن القرآن ، وإثبات أنه حق وصدق ، لا باطل وكذب كما كان المشركون يدعون ، ولم يقدم الظرف ( فيه ) على الريب ، كما قدم فى قوله تعالى : « لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » (٨) لأنه لم يقصد الى الحصر ، إذ تقديم الظرف فى سورة الصافات أفاد الحصر ، أى : نفى الغول عن خمر الجنة وإثباته لخمور الدنيا ، فخمور الدنيا تغتال العقول ، وخمر الجنة تخلو من هذا ، ولذا قدم الظرف ( لا فيها غول ) لإفادة الحصر ..

أما نفى الريب عن القرآن فلم يقصد فيه إثبات ريب للكتب الأخرى ، بل قصد الى تنزيه القرآن عن الريب والشك دون تعريض بغيره ، ولو قيل : لا فيه ريب ، لاثبت ذلك أن كتب الله الأخرى فيها ريب ، وحاشا لكتب الله تعالى أن يكون فيها ريب .

وجعل ( فيه ) خبرا للريب هو المشهور ، ويصح جعلها خبرا مقديما لقوله تعالى ( هدى ) وعندئذ يقدر خبر محذوف للريب ، ويكون المعنى : لا ريب فيه . فيه هدى للمتقين ، وعلى المشهور تكون ( هدى ) خبرا حذف مبتدؤه ، والتقدير : لا ريب فيه هو هدى للمتقين ، وحذف المبتدأ ينبىء بعظمة الهداية ، وكمالها ، كما يدل على ذلك تنكير ( هدى ) ومجيئه مصدرا فلم يقل : هاد ، وإنما قال ( هدى ) .

ومعنى كونه هدى للمتقين ، والمتقون مهتدون ، أن فيه زيادة هدى لهم ، كما يقال للعزیز : أعزك الله ، وللكريم : أكرمك الله ، أى : زادك عزا وكرامة ، يراد بذلك طلب الزيادة إلى ما هو ثابت فيهما ، واستدامته لهما .

أو أن المراد بالمتقين : الضالون الذين شرفوا على الهدى ، كما فى قول النبى - ﷺ - : « من قتل قتيلا فله سلبه » فقد سمي المشارف للقتل قتيلا ، ومنه قوله تعالى : « ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا » (٩) أى : صائرا الى الفجور والكفر ، والمعنى عندئذ : هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال ، ففى المتقين على هذا المعنى مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيؤول اليه أمر الضالين .

ولعل فى العدول الى المجاز تحقيقا لفائدة جليلة وغرض عظيم ، وهو تصدير السورة الكريمة بالتقوى ، وذكر أولياء الله والمرتضين من عباده . .

وقد فصل بين هذه الجملة : « الم ذلك الكتاب ، لا ريب فيه ، هدى للمتقين » لكمال الاتصال ، فهى جملة يؤكد بعضها بعضا ، ويأخذ بعضها بعنق بعض ، لتنزيه الكتاب العزيز ، وتأكيد كماله ، وبلوغه الغاية فى الهداية .

يقول صاحب الكشاف : « والذى هو أرسخ عرفا فى البلاغة أن يقال إن قوله « الم » جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها و « ذلك الكتاب » جملة ثانية ، و « لا ريب فيه » ثالثة ، و « هدى للمتقين » رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم ، حيث جىء بها متناسقة هكذا ، من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متأخية ، أخذا

(٩) نوح : ٢٧ .

بعضها بعنق بعض . . . ببيان ذلك أنه نبيه أولا على أنه الكلام المتحدى به ، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال ، فكان تقريراً لجهة التحدى ، وشدا من أعضاده ، ثم نفى عنه أن يتشبه به طرف من الريب ، فكان شهادة وتسجيلاً بكماله ، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة ، ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين ، فقرر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشك حوله ، وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .» (١٠) .

وقوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » بيان للمتقين وتجليه لهم ، وقد فصل عما قبله لشبه كمال الاتصال المسمى بالاستئناف البياني ، لأنه بمثابة جواب لسؤال تضمنته الجملة السابقة ، وكان سائلا سال ، من هم هؤلاء المتقون الذين جعل القرآن لهم هدى ؟ فجاء الجواب هم الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة (١١) .

والجار والمجرور « بالغيب » إما متعلق بالإيمان صلة له ، أو متعلق بمحذوف وقع حالا من ضمير « يؤمنون » ، والمعنى : يؤمنون متلبسين بالغيب ، حالة كونهم غائبين عن المؤمن به ، كما فى قوله تعالى : « الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون » (١٢)

(١٠) الكشاف ١/١٢١ ، ١٢٢ .

(١١) هذا وقد جعل بعضهم « الذين » صفة للمتقين موصولا به ، أو منصوبا على المدح ، والتقدير : أعنى الذين يؤمنون ، وما ذكرناه على جعل « الذين » خبرا لمبتدأ محذوف تقديره : هم الذين يؤمنون ، والجملة عليه بيان لما قبلها كما أوضحنا ، ويصح أن يكون « الذين » مبتدأ خبره « أولئك على هدى . . . » .

(١٢) الأنبياء : ٤٩ .

وقوله تعالى : « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب » (١٣) . فإن جعل صلة للإيمان : فمعنى الغيب : الغائب الذى هو ضد الشهادة ، كإيمان بالله وصفاته وأنبيائه ، والبعث والنشور والحساب والوعد والوعيد ، وغير ذلك مما غيب عنا وأمرنا بالإيمان به . .

وإن جعل حالا ، كان الغيب بمعنى الغيبة والخفاء ، أى : يؤمنون حال الغيبة ، كما يؤمنون فى الحضور ، فايماثهم إيمان صادق ، وليس كإيمان الذين نافقوا . .

وقوله تعالى : « ويقيمون الصلاة » إقامة الصلاة تحتل أربعة معان :

١ - تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ فى فرائضها وسننها وآدابها ، من قولهم أقام العود ، إذا قومه أى : سواه وأزال عوجه . . .

٢ - الدوام والمحافظة عليها ، كما فى قوله تعالى : « الذين هم على صلاتهم دائمون . . . » والذين هم على صلاتهم يحافظون » (١٤) من قامت السوق وأقامها اذا نفقت ، فتتوجه اليها الرغبات ، ويتنافس فيها المحصلون . وعلى هذين المعنيين فى « يقيمون » استعارة تبعية ، حيث استعيرت الإقامة من تسوية الأجسام ، لتسوية المعانى ، كتعديل أركان الصلاة وحفظها من وقوع زيغ فى فرائضها ، على ما هو حقها ، ثم اشتق من الإقامة « يقيم » بمعنى : يعدل أركان الصلاة . . .

(١٣) يوسف : ٥٢ .

(١٤) المعارج : ٢٣ ، ٣٤ .









ولا يخفى علينا أن « الآخرة » صفة لموصوف محذوف ،  
والتقدير : وبالدار الآخرة هم يوقنون ، قال تعالى : « تلك الدار  
الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً » (١٧)  
وهي من الصفات الغالبة ، وكذلك الدنيا .

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

التعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد « أولئك » يدل على التعظيم  
وعلو المكانة ، تنزيلاً للبعد المعنوي منزلة البعد الحسي ، وجملة  
« أولئك على هدى » إما خبر للذين يؤمنون بالغيب ، إن جعل  
« الذين يؤمنون بالغيب » مبتدأ ، أو خبر للذين يؤمنون بما أنزل  
اليك ، على سبيل التعريض بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا وهم  
ظاننون أنهم على الهدى ، وطامعون في نيل الفلاح .

ويصح أن يكون « الذين يؤمنون بالغيب » تابعا للمتقين -  
كما بينا - وأن يكون « أولئك على هدى » مستأنفا استئنافاً  
بيانياً ، كأنه قيل ما بال المستقلين بهذه الصفات هل اختصوا بالهدى  
والفلاح ؟ فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون  
الناس بالهدى عاجلاً ، وبالفلاح أجلاً .

واسم الإشارة « أولئك » قد حسن موقعه هنا ولطف ، إذ  
يؤذن بأن ما يرد عقبه من جزاء ، فالمذكورون قبله أهل له ،  
وجديرون باكتسابه ، من أجل الخصال التي عدت لهم ، وهذا شأن  
اسم الإشارة عندما يرد بعد تعديد صفات وخصال ، فيؤذن بأن  
المشار إليه جدير باستحقاق ما يأتي عقبه من جزاء ، من أجل  
تلك الخصال المتقدمة ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة « المؤمنون » :

« أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » (١٨) وقوله عز وجل في سورة آل عمران : « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات ٠٠ » (١٩) ، وعد إلى السورتين وتأمل ما عدد من صفات ، وما عقب به من جزاء ليتضح لك صدق ما قلناه ٠٠

وفى قوله تعالى « على هدى من ربهم » استعارة تبعية فى الحرف « على » حيث شبه تمسك المتقين بالهدى وتمكنهم منه باستلقاء الراكب على ما يركبه بجامع التمكن والاستقرار ، ثم استعير له الحرف الموضوع للاستلقاء ، كما فى قوله تعالى : « ولاصليبتكم فى جذوع النخل » (٢٠) حيث شبه تمسك الجذع من المصلوب باستقرار المظروف فى الظرف بجامع الثبات ، ثم استعير لسه الحرف الموضوع للظرفية ٠٠

واستخدام الحرف « على » فى التمثيل لتمكن المتقين من الهدى واستقرارهم عليه ، يشعر بتكريمهم وتعظيمهم ، حيث شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه ، سوا ورفعته ٠٠

وتأمل قوله تعالى : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » (٢١) فستجد عند التأمل أن المهتدين قد صوروا تصوير تكريم وتعظيم ، فهم على هدى قد اعتلوه ، وتلك مكانة سامية ، أما الضالون فهم منغمسون فى الضلال ، يتخبطون فيه ، وتلك منزلة هابطة ، ومكانة ساقطة ، تمثل هبوط الضالين ، وانغماسهم فى الضلال المبين ، تحقيقاً لهم وحطاً من شأنهم ٠٠

(١٨) المؤمنون : ١٠ ، ١١ .

(١٩) آل عمران : ١٣٦ .

(٢٠) طه : ٧١ .

(٢١) سبأ : ٢٤ .

وتنكير « هدى » للدلالة على التعظيم ، وبيان أنه ضرب مبهم لا يبلغ كنهه ، ولا يحاط به ، ولذلك وصف بقوله « من ربهم » مبالغة فى تعظيمه وإبهامه ..

وقوله تعالى : « وأولئك هم المفلحون » أعيد اسم الإشارة « أولئك » فلم يقل : وهم المفلحون مثلاً للدلالة على اختصاصهم بكل واحدة من الصفتين « الهدى » و « الفلاح » على حدة ، لتكون كل منهما مميزة لهم عن عداهم ، والإشعار بأن الصفة الواحدة منهما لو انفردت لكفت مميزة لهم على حياتها ..

وتدل الواو فى قوله : « وأولئك » على اختلاف الخبرين وتميزهما ، وذلك عكس قوله تعالى فى شأن الكفار « أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » (٢٢) فإن الخبرين هنا متفقان ، اذ التسجيل عليهم بالغفلة ، وتشبيهم بالبهائم شئ واحد ، فالجملة الثانية مقررة لما فى الأولى ، ومؤكدة لمعناها ، ولذا فصل بينهما لكمال الاتصال .

وأسلوب « أولئك هم المفلحون » أسلوب قصر طريقة تعريف الخبر بال التى للجنس ، فالفلاح مقصور عليهم ، لا يتعداهم الى غيرهم ، قصر صفة على موصوف ، و « هم » ضمير فصل مؤكد للاختصاص ..

ولا يخفى عليك أن الوصل بين جملتى : ( أولئك على هدك من ربهم وأولئك هم المفلحون ) للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، حيث اتفقتا فى الخبرية لفظاً ومعنى ، ووجدت المناسبة المصححة للوصل بينهما .

وقد أبرزت الآية الكريمة اختصاص المتقين بنيل مالا يناله أحد ، وأكدت ذلك بطرق شتى ، ووسائل مختلفة ، التعبير باسم الإشارة ( أولئك ) وتكراره ، وتعريف المفلحين بأل ، وتوسط ضمير الفصل ( هم ) بينه وبين ( أولئك ) والغرض من ذلك تجلية منزلتهم وبيان مراتبهم ، والتبصير بها ، والترغيب والحث على العمل لنيل هذه المراتب السامية .

( إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ) وبعد ذكر قصة المتقين ، وتجلية خصالهم ، وبيان أن الكتاب هدى لهم خاصة ، عقب بذكر الكفار ، وقد قطعت قصة الكفار عن قصة المتقين فلم تعطف عليها ، لأن بين القصتين تباينا فى الغرض والأسلوب ، وهما على حد لا مجال فيه للعطف ، لأن الأولى مسوقة لذكر الكتاب وأنه هدى للمتقين ، والثانية مسوقة لبيان صفات الكفار ..

ونجد أن الخبر عن الكفار قد جاء مؤكداً بأن : ( إن الذين كفروا ) ويرجع هذا التأكيد الى أن المخاطب وهو النبى - ﷺ - كان حريصاً على هدايتهم ، متفانياً فى دعوتهم وإنذارهم ، متطلعاً إلى استجابتهم وإيمانهم ، فنزلت حالته - ﷺ - هذه منزلة حال المتردد فى استمرارهم على الكفر وعدم الإيمان واستواء الإنذار وعدم الإنذار لديهم ، ولذا جاء الخبر مؤكداً بأن ، ثم جاء التعليل ( الاستثناء البىانى ) فى الآية الثانية ( ختم الله ) وكان المخاطب قد سأل : لماذا يستوى الإنذار وعدمه لديهم ؟ ولم لا يؤمنون ؟ فجاء الجواب ( ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ) وهذا التعليل ينبىء بمدى حرص النبى - ﷺ - على هداية الكفرة ، وتطلعه إلى استجابتهم وإيمانهم ..

وقد جاء المسند إليه اسم موصول حيث تومىء جملة الصلة .

( كفروا ) إلى وجه بناء الخبر ، وهو استواء الإنذار وعدمه لديهم وعدم إيمانهم ، كما نقول : الذى اجتهد طول العام نجح ، فجملة الصلة ( اجتهد طول العام ) أومات الى وجه بناء الخير ( نجح ) .  
فى قوله تعالى : « أنذرتهم أم لم تنذرهم ) ولى الهمزة الفعل لأنه هو المستفهم عنه ، وعندما تكون الهمزة للتصور فانه يليها المستفهم عنه ، يقال : أكرمت أم أهنت ؟ فى الاستفهام عن الفعل ، ويقال : أنت أكرمت أم زيد ؟ فى السؤال عن الفاعل ، ويقال : أزيدا أهنت أم عمرا ؟ فى السؤال عن المفعول ... وهكذا ..

وقد يكون الاستفهام عن الفعل ولى الهمزة غيره للمبالغة ...  
متى يكون ذلك ؟ ( ٢٣ ) ؟

ولا يخفى علينا أن الهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء ، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام ، كما تأتى صيغة النداء ولا يراد بها النداء وإنما يراد بها التخصيص نحو : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة ( ٢٤ ) ...

---

( ٢٣ ) يكون ذلك اذا كان للفعل فاعل محدد أو مفعول أو ظرف ليس للفعل سواه بمعنى أنه لا يقع إلا من هذا الفاعل ، أو لا يقع الا على هذا المفعول ، أو لا يقع الا فى هذا الظرف ، فعندئذ يلى الهمزة أو يليها ويعطف على ما وليها بأم ، ذلك المحدد الذى ليس للفعل سواه ، ويكون المراد الاستفهام عن الفعل مثال ذلك : أفى ليل وقع هذا أم فى نهار ؟ وقوله تعالى : ( الذكرين حرم أم الانثيين ) وقوله عز وجل ( أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ) وما من ريب فى أن انتفاء الفاعل أو المفعول أو الظرف الذى ليس للفعل سواه يكون أبلغ فى انتفاء الفعل وإنكاره . . . يراجع دلائل الإعجاز ص ١٤٧ .

( ٢٤ ) انظر الكشف ج ١ ص ١٥٢ ؟

وقصلت جملة ( لا يؤمنون ) عن الجملة قبلها ( سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذروهم ) لكمال الاتصال ، لأنها مؤكدة لها ، ومبينة لاستواء الإنذار وعدمه فى عدم الإجداء ، ولك أن تجعل جملة ( لا يؤمنون ) خبر إن ، والجملة قبلها اعتراض ، والأول وهو جعلها تأكيدا وبيانا للاستواء فى عدم الجدوى أولى ، لأن استواء الإنذار وعدمه فى عدم الإجداء أقوى وأظهر من نفى الإيمان فى الدلالة على الغرض المسوق له الكلام وهو إصرار هؤلاء الكفرة على العناد واستمرارهم ويقاؤهم فى الكفر ، فجعله عمدة فى الكلام أولى من جعله اعتراضيا مستغنى عنه ( ٢٥ ) .

( ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ) الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار من باب المجاز ، فهما إما من قبيل الاستعارة التصريحية ، أو من قبيل الاستعارة التمثيلية ، بيان ذلك :

أن لفظ ( الختم ) استعير من ضرب الخاتم على الشيء ليمنع نقشه نفوذ شيء إليه ، لإحداث هيئة فى القلب والسمع مانعة من خلوص الحق اليهما ، فقد استعير الختم المحسوس لأمر معقول وهو أحداث تلك الهيئة المانعة ، ووجه الشبه هو المنع فى كل ، ثم اشتق من الختم

---

( ٢٥ ) فى قوله تعالى ( سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذروهم ) وجهان من الإعراب ، أن يعرب ( سواء ) خبرا مقدما و ( أنذرتهم أم لم تنذروهم ) فى موضع الابتداء والمعنى سواء عليهم أنذارك وعدمه ، ولا يقال كيف يخبر بالاسم عن الفعل والفعل لا يكون إلا خبرا ؟ لأن هذا من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ الى جانب المعنى ، والوجه الثانى أن يكون ( سواء ) اسما بمعنى الاستواء فهو مصدر بمعنى اسم الفاعل ، و ( أنذرتهم أم لم تنذروهم ) مرتفع به على الفاعلية والمعنى : إن الذين كفروا مستو عليهم أنذارك وعدمه . . .

( ختم ) بمعنى : أحدث هيئة فى القلب والسمع على سبيل الاستعارة  
التصريحية التبعية فى الفعل ..

وكذا استعير لفظ ( الغشاوة ) من معناه الأصلى لحالة فى أبصارهم  
مقتضية لعدم اجتلائها آيات الله ودلائله ، فهو استعارة تصريحية أصلية  
من محسوس لمعقول بجامع المنع فى كل ، وبذا يكون فى ( ختم )  
استعارة تصريحية تبعية ، وفى ( غشاوة ) استعارة تصريحية أصلية ..

ويصح أن يكون المجاز فى الموضعين من قبيل الاستعارة التمثيلية  
حيث شبهت حال قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم مع الهيئة الحادثة فيها  
المانعة من الانتفاع بها بحال أشياء معدة للانتفاع بها فى مصالح  
مهمة مع المنع عن ذلك بالختم والتغشية ، ثم استعير للمشبه اللفظ الدال  
على المشبه به ، فكل طرف من طرفى التشبيه مركب من عدة أمور ،  
والجامع أمر عقلى منتزع من تلك الأمور وهو عدم الانتفاع بما أعد  
لانتفاع بسبب عروض مانع ، ومثال الاستعارة التمثيلية فى أقوالهم :  
أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، يقال ذلك للمتردد فى الأمر ، وأراك  
تنفخ فى رماد وتضرب فى حديد بارد وتخط على الماء ، ويقال  
هذا لمن يبذل جهده فى عمل لا يثمر شيئاً ..

وعندما نتأمل الآية : ( ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى  
أبصارهم غشاوة ) ونمعن النظر فى بنائها نجد ما يلى :

أولا : الجار والمجرور فى الموضعين الأول والثانى يتعلقان بالفعل  
( ختم ) وأما فى الموضع الثالث فهو خبر مقدم و ( غشاوة ) مبتدأ  
مؤخر هذا على قراءة رفع ( غشارة ) وأما على قراءة نصبها فهو  
مفعول فعل محذوف تقديره : جعل أو أحدث ، والجار والمجرور  
يتعلق به ، فالواو الأولى عطف للظرف على الظرف قبله ، والواو الثانية

غطف للجملة على الجملة ، ولا يصح العكس للأمور الآتية :

١ - التصريح بالختم على السمع وخص البصر بالغشاوة فى قوله تعالى:  
« أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم  
على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ٠٠ » (٢٦) والقرآن  
يفسر بعضه بعضا .

٢ - أن القلوب والسمع لما كانت مكنونة مستترة ، كان استعمال  
الختم لها أولى ، والأبصار لما كانت بارزة وإدراكها متعلق  
بظواهرها كان استعمال الغشاوة لها أليق . .

٣ - أن إدراك القلب والسمع من جميع الجوانب ، ولذا كان الأولى جعل  
المانع فيهما الختم الذى يمنع من جميع الجهات ، وأما إدراك  
البصر فمن جهة المقابلة فقط ، ولذا خص المانع فيه بالغشاء  
الذى يكون بين الرأى والمرئى . .

ثانيا : تكرار حرف الجر ( على ) فى قوله تعالى : ( وعلى  
سمعهم ) يدل على شدة الختم فى الموضوعين ، لأن ملاحظة الجار فى  
كل منهما تقتضى أن يلاحظ معنى الفعل مع كل من القلوب والسمع ، فكان  
الفعل ( ختم ) قد ذكر مرتين . .

ثالثا : جمعت القلوب والأبصار وأفرد السمع لأن السمع فى أصله  
مصدر والمصادر لا تجمع ، فلمح الأصل ، يدل على ذلك جمع الأذن فى  
قوله تعالى « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا  
وقر ٠٠٠ » (٢٧) ، ولذا يقدر مضاف محذوف ، أى : وعلى حواس  
سمعهم . . .

كما أن فى أفراد السمع وجمع القلوب والأبصار تفننا فى القول ،  
وإشارة إلى أن مدركات السمع نوع واحد ، وأن مدركات كل من القلوب  
والأبصار أنواع مختلفة . .

رابعاً : تنكير ( غشاوة و ) عذاب ( للنوعية ، والمعنى أن على  
أبصارهم نوعاً من الأغطية غير ما يتعارفه الناس ، وهو غطاء التعامى  
عن آيات الله ، لهم من بين الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا  
الله ، وقيل أن التنكير فى الموضوعين للتعظيم ، والأول أرجح لاستفادة  
التعظيم من صريح الوصف ( ولهم عذاب عظيم ) . .

(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)  
الواو فى قوله تعالى : « ومن الناس » واو الاستئناف أو واو القصة وهى  
الواو التى تعطف مجموع جمل متعددة مسوقة لغرض على مجموع جمل  
أخرى مسوقة لغرض آخر ، ويشترط فى هذا العطف التناسب بين  
غرضي المجموعين دون التناسب بين أحاد الجمل الواقعة فى كل  
مجموع ، بخلاف واو العطف التى تصل بين جملتين ، فإنها تتطلب  
المناسبة المصححة لعطف الجملة الثانية على الأولى . .

ولام التعريف فى ( الناس ) إما للعهد الذكري ، فيكون المراد  
بهم : الذين كفروا المار ذكرهم ، كأنه قيل : ومن هؤلاء من يقول كذا ،  
وهم عبد الله بن أبى وأصحابه ، ومن كان فى حالهم من أهل التصميم  
على النفاق ، أو للجنس ، والمعنى : ومن جنس الناس من يقول كذا .  
وسواء أكانت اللام للعهد أم للجنس فإن المراد ذم هؤلاء الكفار  
وتقبيحهم والتعجيب من صنيعهم وإصرارهم على الكفر والعناد ، والتنبيه  
على أن الصفات المذكورة فى تنافى الإنسانية ، فينبغى أن يجهل كون  
المتصف بها من الناس ، وأن يتعجب من شأه .

والتعبير بالمتضارع ( يقول ) يدل على تجدد القول من هؤلاء .

واستمرار خداعهم ، إذ يظهرون خلاف ما يبطنون ، وينطقون بعكس ما يضمرون ..

وقوله تعالى ( آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ) نلاحظ أن ذكر الباء في ( وباليوم الآخر ) بعد ذكرها في ( بالله ) قد أفاد المبالغة في تأكيد ما ادعوه من الإيمانين ، فهو واقع منهم - في اعتقادهم - على صفة الصحة والاستحكام .

وقد جاء الرد عليهم بنفى الإيمان عنهم على سبيل البت والقطع ، حيث عدل عن التعبير بالجملة الفعلية الى الجملة الاسمية في قوله : ( وما هم بمؤمنين ) وكانت المطابقة لرد دعواهم تقتضى أن يقال : وما آمنوا ، وفي هذا العدول من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره ، فقد أدى تقديم المسند إليه وإيلاؤه أداة النفي بالإضافة الى زيادة الباء في المسند ، أدى ذلك الى تأكيد إخراج ذوات القائلين وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين ..

وهذا شأن ذلك التعبير ، تقديم المسند اليه على خبره غير الفعلى وإيلاؤه أداة النفي يفيد إما التوكيد والمبالغة في نفي الحكم كما في الآية الكريمة ، وكما في قوله تعالى : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرحى » ( ٢٨ ) وإما الاختصاص كما في قوله عز وجل : « ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز .. » ( ٢٩ ) وذلك حسبما يقتضى السياق ..

أما تقديمه على خبره الفعلى بعد النفى ، كقولك : ما أنا فعلت ، ما محصد أفسد هذا ، فإنه يفيد الاختصاص فى الكثير الغالب ،

---

( ٢٨ ) ابراهيم : ٢٢ .

( ٢٩ ) هود : ٩١ .

وقد يفيد مجرد التوكيد فى القليل النادر (٢٩) ٠٠٠

وفى دعوى المنافقين الإيمان قيد بالله واليوم الآخر ٦ أمنا بالله وباللوم الآخر ) وفى إبطال دعواهم ونفى إيمانهم جاء مطلقا بلا تقييد ( وما هم بمؤمنين ) فما القول فى هذا ؟ ٠٠ وما الغرض منه ؟  
إما أن يقال : التقييد بالله واليوم الآخر مراد ، وقد ترك فى الثانى ندالة الأول عليه ، واما أن يقال : ان التقييد فى الثانى غير مراد ، بل المراد الإطلاق ، والمعنى أنهم ليسوا من الإيمان فى شىء ، لا من الإيمان بالله واليوم الآخر ، ولا من الإيمان بغيرهما ، وهذا القول أرجح ، لأن فيه زيادة فى التأكيد والمبالغة فى إبطال دعواهم ونفى الإيمان عنهم ، وهو ما يلائم السياق ٠٠

ولا يخفى علينا الطباق بين قوله : ( أمنا ٠٠ وماهم بمؤمنين ) حيث أثبت الإيمان ، ادعى المنافقون أنه ناست لهم ، واقع منهم ، ثم نفى عنهم بأبلغ وجه - كما بينا - ويعرف هذا لدى البلاغيين بطباق السلب ٠٠

والطباق وغيره من فنون البديع ، ليس لمجرد الزينة والتحسين كما يرى كثير من البلاغيين ، بل لهذه الفنون فضلا عن الزينة وتحسين الكلام ، الأثر البالغ فى تجلية المعانى وإبرازها ، حسبما يقتضى المقام ، فنجد للطباق فى الآية الكريمة أثره فى إيضاح المعنى المراد ، وإبراز عقيدة هؤلاء المنافقين وتناقضهم ، واقترائهم الكذب على الله تعالى ٠٠

( يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما

يشعرون )

فُصِّلت جملة ( يخادعون ٠٠٠ ) عن قوله تعالى : ( يقول أمنا ٠٠٠ وما هم بمؤمنين ) للاستئناف البياني ( شبه كمال الاتصال ) إذ تضمنت الجملة الأولى سؤالاً وجاءت الثانية جواباً له ، كأنه قيل : لم يدعون الإيمان كاذبين ؟ وما نفعهم في ذلك ؟ فجاء الجواب : ( يخادعون ٠٠٠ ) .

ويصح أن يكون الفصل لكمال الاتصال ، لأن ( يخادعون ) بيان لقوله تعالى ( يقول أمنا ٠٠٠ وما هم بمؤمنين ) .

وفى ( يخادعون ) مجاز بالاستعارة ، حيث شبهت صورة صنيعهم مع الله تعالى بإظهارهم الإيمان وهم كافرون ، وصورة صنيع الله تعالى معهم إذ أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده أهل الدرك الأسفل من النار ، وصورة صنيع الله المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله تعالى فيهم فأجروا ذلك عليهم ، شبهت هذه الصور بصورة صنع الخادع ، فهي استعارة تصريحية تبعية ..

وقوله : ( وما يخرعون إلا أنفسهم ) أسلوب قصر طريقه ( النفي والاستثناء ) والمعنى أن ضرر الخدع لا يلحق إلا أنفسهم ، ومكره لا يحيق إلا بهم ، وعلى ذلك ففي لفظ ( يخدعون ) مجاز مرسل حيث أطلق الخدع وأريد ما يترتب عليه من الضرر ..

وقيل انه لا مجاز ، والمراد حقيقة الخدع ، فهم يخدعون أنفسهم حيث يمتنونها الأباطيل ، وأنفسهم كذلك تخدعهم - على قراءة ( وما يخادعون ) - أى : تمنيهم وتحديثهم بالأمانى الكاذبة ، والأطماع الفارغة وقر أثر طريق ( النفي والاستثناء ) لأنه يستعمل فيما ينكره المخاطب ويجمده ويجهله ، أو فيما ينزل هذه المنزلة ، والمنافقون ينكرون أن ضرر الخداع لاحق بهم ، راجع الى أنفسهم ، ويدفعون

ذلك ويجحدون ، ولذا جاء القصر بالنفى والاستثناء دون ( إنما )  
التي تستعمل فيما شأنه أن يعلمه المخاطب ، ولا ينكره ..

وفى ختام الآية الكريمة بنفى الشعور ( وما يشعرون ) دون  
التعبير بالعلم مثلا ( وما يعلمون ) ما يشعر بانحطاط أولئك المنافقين  
وتدنيهم عن مرتبة البهائم ، فهم كالأنعام بل هم أضل ، حيث لا  
يدركون الأمر الجلى البين وهو لحوق ضرر الخداع بهم ، فهذا أمر  
واضح كالحسوس ، وهم لتمامدى غفلتهم ، كالذى لا حس له ولا شعور ،  
وفى هذا من الذم والتهمك بهم ما فيه ، ولا يخفى عليك أن نفى الشعور  
يستلزم نفى العلم ، فالذى لا يشعر بالأمر الواضح لا يعلمه بالطريق الأولى

( فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما  
كانوا يكذبون )

فصلت هذه الجملة ( فى قلوبهم مرض ) عما قبلها للاستئناف  
البياني ، فهى جواب لسؤال انبعث من الكلام السابق فحواه : ما بالهم  
لا يؤمنون ؟ وما الموجب لخداعهم وما هم فيه من النفاق ؟ فجاء  
الجواب : فى قلوبهم مرض ..

والمراد بالمرض : الكفر وسوء الاعتقاد ، أو الهيئة الباعثة على  
ارتكاب الرذائل كالغل والحسد والبغض ، قال تعالى : « قد بدت  
البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » (٣٠) أو الهيئة  
المانعة عن اكتساب الفضائل كالضعف والجبن والخور ، ونحو ذلك  
من الآفات الشبيهة بالمرض ، فهو معنى مجازى ، حيث استعير المرض  
لهذه الآفات ، كما تستعار السلامة والصحة فى نقائص ذلك ..

ويصح أن يراد بالمرض فى الآية : الظلمة ، لأن المرض يطلق فى اللغة على السقم وما يقابل الصحة ، وعلى الألم وعلى الظلمة ، قال الشاعر :

فى ليلة مرضت من كل ناحية

فما يحس بها نجم ولا قمر

وعلى هذا أيضا فالمعنى مجازى ، إذ المراد ظلام الكفر وسواده ، لا حقيقة الظلمة ، كما فى قوله تعالى : « يخرجهم من الظلمات إلى النور » (٣١) ، أى : من الكفر إلى لإيمان .

وتنكير ( مرض ) للدلالة على أنه نوع غير ما يتعارفه الناس من الأمراض ، وقد أفرد المرض فلم يجمع كما جمعت القلوب ( فى قلوبهم ) لأن تعداد المحال يدل على تعداد الحال ، فاكتفى بجمع ( القلوب ) عن جمع ( المرض ) .

وجملة ( فزادهم الله مرضا ) إما دعائية معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه والجملة المعترضة قد تفتقرن بالفاء ، كما فى البيت :

واعلم فعلم المرء ينفعه أن سوف يأتى كل ما قدرا

وأما إخبارية معطوفة بالفاء على الاسمى قبلها ، والتعبير بالاسمية ( فى قلوبهم مرض ) ثم عطف الفعلية عليها بالفاء ينبىء بأن المرض فطرة فيهم ثابتة ومحققة ، ولذا ازدادوا على الفور بما من الله به على المؤمنين مرضا ، وإذا لم يكن المرض طبعا متأصلا فيهم ، لزال عنهم وشفوا منه ، وتغيرت حالهم ، فحدث لهم بما من الله تعالى به على المؤمنين شفاء واستبراء .

وفى قوله تعالى : ( فزادهم الله ) حذف المضاف ، والأصل : فزادها الله أى : فزاد الله قلوبهم ، وهذا الحذف ينبىء بتمكن المرض

واستشراؤه فى جميع الجسد ، وأنه لم يقف عند حد القلب فحسب . .

وتنكير المرض فى قوله تعالى : ( فزادهم الله مرضا ) للتفخيم والتعظيم ، أى فزادهم الله مرضا عظيما فوق مرضهم الذى طبعوا عليه .  
وفى قوله تعالى : ( وله عذاب اليم ) مجاز عقلى ، لأن ( اليم ) فعيل بمعنى مفعول بفتح العين ، اسم مفعول من ألم ، والعذاب فاعل للكلم وليس مفعولا ، فهو مجاز عقلى أسند فيه اسم المفعول إلى الضمير العائد على الفاعل ( العذاب ) ، كما فى قوله تعالى : « حجابا مستورا » ( ٣٢ ) ، وكما فى قولهم سيل مفعم بفتح العين . .

والعذاب الاليم يصيب المنافقين ويلحق بهم لأسباب كثيرة ولجهات عديدة ، وجعل الكذب هو السبب للحوق العذاب بهم فى قوله : ( ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون ) ينبىء بشناعة الكذب ، وينفر من ارتكابه ، حيث خيل - كما يقول الزمخشري - أن العذاب لاحق بهم من أجل كذبهم .

وكلمة ( كان ) تدل على الاستمرار فى جميع الأزمنة ، ووقوع المضارع بعدها ( يكذبون ) يدل على الاستمرار التجددى الداخلى فى جميع الأزمنة ، فكذب المنافقين مستمر يتجدد فى زمان الحكم ، وفى الزمن الماضى ، وفى المستقبل الآتى بعد زمن الحكم . .

( وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون  
إلا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ) .

هذه الجملة ( اذا قيل لهم . . . ) معطوفة على ما قبلها ، وفى تحديد المعطوف عليه أقوال هى :

١ - قيل المعطوف عليه قوله تعالى : ( يكذبون ) لأنه أقرب :  
والمعنى أن سبب استحقاقهم العذاب كذبهم وإفسادهم فى الأرض ،

أى : ولهم عذاب اليم بسبب كذبهم وإفسادهم .

٢ - وقيل المعطوف عليه ( يقول ) فى قوله تعالى : ( ومن الناس من يقول آمنا بالله ... ) لتكون الآيات على نمط تعديد قبائحهم وإفادتها اتصافهم بكل من تلك الصفات استقلالا وقصدا ودلالتها أيضا على أن لحوق العذاب بسبب كذبهم الذى هو أدنى أحوالهم فى الكفر والنفاق ، فما بالك بسائر أحوالهم ..

٣ - وقيل إنها معطوفة على قوله : ( ومن الناس ... ) لبيان حالهم فى ادعاء الإيمان وكذبهم فيه أولا ، ثم بيان حالهم فى إمكانهم فى باطلهم ورؤية القبيح حسنا والفساد صلاحا ثانيا ، وهذا أرجح الأقوال فى تحديد المعطوف عليه ، لأنه يجعل المعتمد بالعطف مجموع الأحوال ، وهذا ما يقتضيه السياق ويتلاءم مع تعداد القبائح ..

وفى إشار التعبير ( بإذا ) دون ( إن ) ما يفيد تحقق القول وإسداء النصح ، وعلى الرغم من تحقق القول وإسداء النصح ، فقد أعرضوا واستمروا فى غيهم وأصروا على عنادهم .. والقائل إما النبى ﷺ مبلغا عن ربه الذى أخبره بنفاقهم ، وإما بعض المؤمنين المتفرسين بنور الإيمان أحوالهم ، وإما بعض من كانوا يلقون إليهم الفساد فلم يقبلوه منهم لأمر ما وانقلبوا لهم واعظين ناصحين ، وحذف الفاعل وبناء الفعل للمفعول قد جعل المعنى يتسع لكون القائل أحد من ذكرنا ..

والمراد بالنهاى فى قوله تعالى : ( لا تفسدوا ) النصح والإرشاد والمراد بالأرض جنسها ، فال للاستغراق ، والنهاى عندئذ عن الإفساد فى أى فرد من أفرادها ، أو المراد بها المدينة المنورة فال للعهد الذهنى ..

ولا يقال : كيف أسند الفعل إلى الفعل فى قوله تعالى : ( قيل لهم لا تفسدوا ) ومثله : ( قيل لهم آمنوا ) ؟ لأن الذى لا يصح هو إسناد الفعل إلى معنى الفعل ، وأما إسناده إلى لفظه كما هنا فهو صحيح ، كانه قيل : وإذا قيل لهم هذا القول ، فالألفاظ سواء أكانت مهملة أم مستعملة ، مفردة أم مركبة يصح الإسناد إليها ، أى إلى الفاظها سواء كانت مجردة عن ملاحظة معانيها ، كما فى قولنا : ألف من ثلاثة أحرف ، أو مأخوذة معها ، كما فى الآية ( قيل لهم لا تفسدوا ) إذ المسند إليه لفظها باعتبار الدلالة على المعنى ..

وقوله تعالى : « إنما نحن مصلحون » أسلوب قصر ، قصروا أنفسهم على الإصلاح المحض الذى لا يشوبه شىء من وجوه الفساد ، فهو قصر أفراد ، لأنهم لما نهوا عن الإفساد ، وتوهموا أنه قد حكم عليهم بأنهم يخلطون الإصلاح بالإفساد ، أجابوا بأنهم مقصرون على محض الإصلاح لا يشوبه شىء من وجوه الفساد والإفساد ..

وإيثار التعبير بإنما دون غيرها من طرق القصر كالنفي والاستثناء مثلا ، للدلالة على أن هذا أمر واضح لا ينبغى أن يرتاب فيه أحد ، أو يجهله ، لأن ( إنما ) تستخدم فيما الشأن فيه أن يعلمه المخاطب ، لا ينكره ولا يشك فيه .

وفصل قوله تعالى : ( ألا إنهم هم المفسدون ) عما قبله للاستئناف البيانى ، كأن قائلا قال : وهل صدقوا فى دعواهم الاصلاح ؟ فأجيب : ألا إنهم هم المفسدون ، وهذا رد لدعواهم بأبلغ وجه ، فبالإضافة إلى الاستئناف البيانى الذى أدى إلى زيادة تمكن الحكم فى ذهن السامع قد جاء التأكيد بالألا وإن ، وتوسط ضمير الفصل وتعريف الخبر ، ثم قوله ( لا يشعرون ) .

( فالألا ) أداة تنبيه قيل إنها مركبة من همزة الاستفهام و ( لا ) النافية ، فهى تفيد التنبيه على تحقيق ما بعدها ، لأن الهمزة

للاستفهام الإنكارى ، وإنكار النفى تحقيق للإثبات وقيل إنها بسيطة لا تركيب فيها ، وتفيد التنبيه والتحقيق بأصل الوضع ، ومثلها ( أما ) وسواء أكانتا مركبتين أم غير مركبتين ، فهما يستخدمان فى الأمور المهمة التى تحتاج إلى تنبيه وتأكيد وتحقيق ، كما فى الآية ( ألا إنهم هم المفسدون ) وكما فى قوله تعالى « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم » (٣٣) وكما فى قول القائل :

أما والذى أبكى وأضحك والذى  
أمات وأحيا والذى أمره الأمر  
لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى  
اليقين منها لا يروعهما الذعر

فهما لا تكاد الجملة تقع بعدهما إلا مؤكدة بنحو ما يتلقى به القسم ، وإن واللام وقد وحرف النفى ..

وقوله : ( انهم هم المفسدون ) أسلوب قصر طريقه تعريف المسند بال ، فهم مقصرون على الإفساد قصر قلب ، وضمير الفصل تأكيد لهذا الحصر ، وهذا مناسب لرد دعواهم الكاذبة ، فإنهم لما قصروا أنفسهم على الإصلاح قصر أفراد ، ناسب فى الرد أن يقصروا على الإفساد قصر قلب ، أى : هم مقصرون على الإفساد ، لاحظ لهم فى الإصلاح (٣٤) .

ومما يؤكد رد دعواهم قوله تعالى : ( ولكن لا يشعرون ) فهو

---

(٣٣) يونس : ٦٢ .  
(٣٤) الأصل فى هذا الطريق أن المقصور هو المقترن بال ، والمقصور عليه الخالى منها ، ولكن السياق فى الآية الكريمة اقتضى مخالفة هذا الأصل ، وأوجب أن يكون المقصور الضمير العائد على المنافقين فى قوله : ( إنهم ) والمقصور عليه المسند المقترن بال ( المفسدون ) كما رأينا .

يدل على أن كونهم مفسدين قد ظهر ظهورا بينا ، وصار كالمحسوس ،  
ولكن لا حس لهم ليدركوه ..

وقد جاءت أداة الاستدراك ( لكن ) هنا ، ولم تات هناك بعد  
المخادعة فى قوله تعالى : ( يخادعون الله ... وما يشعرون ) لأنه  
لم يتقدم فى المخادعة ما يتوهم منه الشعور توهما يقتضى التعقيب  
برفعه ، وأما هنا فقد تقدم نهيبهم عن الإفساد وإجابتهم أنهم مصلحون  
ورد تلك الإجابة،ولذا كان الأمر هنا محلا للاستدراك ، دون ما هناك .

ومفعول ( لا يشعرون ) محذوف ، تقديره : ولكن لا يشعرون  
أنهم مفسدون ، ولا يقال : كيف يذم من أفسد ولم يعلم ، وإنما يذم  
من أفسد عن علم ؟ لأن تقصيرهم فى العلم مع التمكن منه يوجب  
ذمهم ..

ويحتمل أن يكون تقدير المحذوف : ولكن لا يشعرون أن وبال ذلك  
الفساد يرجع إليهم ، أو : ولكن لا يشعرون أنا نعلم أنهم مفسدون ،  
وعندئذ فقوله تعالى : ( ألا إنهم هم المفسدون ) خبر أريد به لازم الفائدة  
لأنهم يعلمون الخبر ، أى : يعلمون أنهم مفسدون ، ولكن يجهلون علم  
المتكلم به ، أو يجهلون عاقبة الإفساد ، ورجوع وباله إليهم ، فالخبر  
إذا أريد به لازم الفائدة ، لأن المخاطب ان كان يجهل الحكم ، فالغرض  
من الخبر : فائدته ، وإن كان يعلم الحكم ، فالغرض منه هو ( لازم  
الفائدة ) ..

ويحتمل ألا ينوى تقدير محذوف ، ويكون الفعل كاللازم ،  
والمعنى : أنهم ليسوا من أهل الشعور والعلم ، وهذا أبلغ فى ذمهم ،  
وفيه مزيد تسلية لرسول الله - ﷺ - ، لأن من كان من أهل الجهل ،  
لا يعبا به ، ولا ينبغى أن يكثر بمخالفته ..

( وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن

السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ) .

وصلت هذه الآية بقوله تعالى : ( وإذا قيل لهم لا تفسدوا )  
تعدادا لقبائح المنافقين ، وإصرارهم على العناد والمكابرة ، فقد  
نصحوا أولا بترك الرذائل والتخلّى عن الإفساد ، فأبوا ولم يستجيبوا  
ثم نصحوا ثانيا هنا باكتساب الفضائل وتحصيل الإيمان ، فأبوا  
وسخروا عنادا وتكبيرا ..

وإيثار التعبير ( بإذا ) دون ( إن ) يفيد تحقق وقوع النصح ،  
والقائل - كما وضحنا فى الآية السابقة - هو النبى - ﷺ - أو المؤمنون ،  
أو بعض من كانوا يلقون إليهم النفاق فلم يقبلوا ، وانقلبوا لهم ناصحين  
وحذف الفاعل فى ( قيل ) جعل المعنى يتسع لذلك - كما ذكرنا - ويشعر  
بأنهم نصحوا من جهات عدة ، ومع ذلك أبوا إلا العناد والمكابرة ..

ولا يعترض على كون الناصح النبى - ﷺ - أو المؤمنين بأن ذلك  
يلزم مجاهرتهم بالكفر ، فيكونون كفارا لا منافقين ، لأن إجابة المنافقين  
الناصح وقولهم له : أنؤمن كما آمن السفهاء ، يحمل عندئذ على أنه كان  
مقولا فيما بينهم ، وليس مقولا فى مواجهة المؤمنين أو النبى ﷺ ..

والأمر فى قوله تعالى : ( آمنوا ) للنصح والإرشاد ، فقد  
نصحوا بأن يتحقق إيمانهم ، وأن يكون إيمانا مشابها لإيمان الناس ،  
خالصا من شوائب النفاق الذى تمكن منهم ، وملئوا به ..

فالمطلوب منهم إيمان يكون مقرونا بالإخلاص ، بعيدا عن النفاق ،  
مماثلا لإيمان الناس ، وتشبيه الإيمان المطلوب تحقيقه منهم بإيمان  
الناس ، يدل على سوء أحوالهم ، وظهور نفاقهم ، وأن ما ادعوه  
من إيمان لا وجود له ، بل هم عنه بمعزل إذ « يتولون بأفواههم ما  
ليس فى قلوبهم » (٣٥) ولذا طلب منهم أن يستقيموا على الطريقة ، وأن  
يتخلوا عن النفاق ، وأن يؤمنوا إيمانا خالصا كإيمان الناس ..

واللام فى ( الناس ) إما للعهد ، والمراد بهم الرسول ﷺ ومن آمن معه ، أو للجنس ، أى : كما آمن جنس الناس ، الكاملون فى الإنسانية ، جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة ، ومن عداهم ليسوا من الإنسانية فى شىء ، فهم كالأنعام بل هم أضل ، حيث فقدوا التمييز بين الحق والباطل . .

والاستفهام فى قوله تعالى : ( أنؤمن كما آمن السفهاء ) للإنكار الإبطالى ، والمعنى : لن يكون ذلك الإيمان أصلا ، وإطلاقهم لفظ السفهاء على المؤمنين يدل على مدى العناد والمكابرة ، والإصرار على الضلال والغى ، حيث جعلوا الكاملين فى الإنسانية سفهاء .  
واللام فى ( السفهاء ) إما للعهد ، والمراد بهم الناس المذكورون فى الآية قبل ، وإما للجنس ، وينطوى تحته المذكورون لأنهم - فى زعمهم واعتقادهم - أغرق الناس فى السفه . .

وقد جاء الرد عليهم بأبلغ وجه ( ألا إنهم هم السفهاء ) حيث فصل عما قبله للاستئناف البيانى ، وصدر بأداة التنبيه ( ألا ) وتلتها أداة التوكيد ( ان ) ، وجيء بضمير الفصل ( هم ) وعرف الخبر بلام الجنس ، ( السفهاء ) فهم مقصرون على السفاهة ، وطريق القصر تعريف الخبر باللام ، وضمير الفصل مؤكد لهذا القصر ، وقد سبق تفصيل ذلك فى الآية السابقة ( ألا إنهم هم المفسدون ) فعد إليه (٣٦) .

---

(٣٦) الأصل فى طريق ( تعريف الخبر بال ) أن المقصور هو المقترن بال والمقصور عليه هو الخالى منها ، ولكن السياق اقتضى مخالفة هذا الأصل وجعل المقصور المسند اليه والمقصور عليه المسند المقترن بال ، فهم مقصرون على السفاهة ، موقوفون عليها وهذا أبلغ فى ذمهم وتقبيحهم من جعل السفاهة مقصورة عليهم لا تتعداهم إلى المؤمنين ، وبهذا يتضح لنا أن السياق قد يقتضى مخالفة الأصل الذى قرره البلاغيون ، وقد عرفنا أن الطريقتين من طرق القصر قد يجتمعان ويقتضى السياق اعتبار أحدهما وإلغاء الآخر لتعارضهما فى تحديد المقصور والمقصور عليه ، فالعمل عليه إذا هو السياق ، وما يقتضيه يقدم على الأصول والمقررات البلاغية عند تعارضه معها .

لم ختمت هذه الآية بنفى العلم وختمت السابقة بنفى الشعور ؟  
ختمت هذه الآية الكريمة بنفى العلم ( ولكن لا يعلمون ) وختمت  
السابقة بنفى الشعور ( ولكن لا يشعرون ) لأن المثبت لهم هناك فى  
الآية السابقة هو الإفساد الذى نهوا عنه ، وهو مما يدرك بأدنى تأمل ،  
ولا يحتاج إلى إعمال فكر ، لأنه أمر دنيوى ، مبنى على العادات  
معلوم عند الناس ، ولذا نفى عنهم الشعور مبالغة فى تجهيلهم ،  
لأنهم جهلوا ما يدرك بالمشاعر . .

وأما المثبت هنا فى هذه الآية فهو السفه ، وقد صدرت الآية  
بالأمر بالإيمان ، وذلك مما يحتاج إلى (نرظ) واستدلال ، وتأمل يفضى  
إلى الإيمان ، ولكن لم يقع منهم إيمان ، فناسب ذلك نفى العلم عنهم .  
وأيضا السفه هو خفة العقل والجهل بالأمور ، والذى يناسب  
ذلك أتم مناسبة هو نفى العلم الذى ختمت به الآية ( ولكن لا يعلمون ) .  
( وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم  
قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزعون . الله يستهزئ بهم ويمدهم  
فى طغيانهم يعمهون ) .

وصلت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى فى الآية السابقة : ( وإذا  
قيل لهم آمنوا . . . ) تعدادا لأحوال المنافقين ، اذ تضيف وصفا  
آخر لأوصافهم السابقة ، وهو الكشف عن حالهم عند لقاءهم المؤمنين  
وعند خلوهم بإخوانهم فى الضلال ، فهم إذا لقوا المؤمنين ادعوا  
الإيمان ، وإذا انفردوا بقرناء السوء نفوا ما ادعوه وأكدوا لهم أنهم  
ما ادعوه إلا سخرية واستهزاء .

وهكذا تتوالى أحوال المنافقين ، وتعدد الآيات قبائحهم وأفعالهم  
المستينة ، حيث بدأت ببيان نفاقهم ، إظهار الإيمان وإبطان الكفر ،  
وخداع المؤمنين ، وتمكن الكفر والحقد من قلوبهم ، ثم كشفت عن  
إفسادهم وتعاميهم عن الحق ، ثم أبرزت سفاهتهم ورفضهم أن يكونوا

كالخيار فى تحصيل الفضائل ، ثم بينت هذه الآيه كيف أنهم يتلونون فيلقون المؤمنين **بجه** ، ويلقون إخوانهم فى الضلال والنفاق بوجه آخر ، وهكذا تتعدد قبائحهم ، وتتوالى شنائعهم ..

وفى التعبير بقوله تعالى : ( لقوا ... واخلوا الى ) بيان لحالين مختلفين للمنافقين ، فحالهم مع المؤمنين لقاء يقع ، وحالهم مع شياطينهم خلو إليهم ، وانفراد بهم ، وإقبال عليهم ، يقال : خلا إليه ، وخلا به أى : انفرد معه ، أو خلا غيره إليه بحذف المفعول ، والتقدير : واذا خلوا المؤمنين الى شياطينهم ، وهذا الحذف يومئذ الى مدى كراحتهم وبغضهم للمؤمنين ، واستثقالهم لقاءهم ، فما يكاد اللقاء ينتهى ، حتى يسارعوا الى شياطينهم ، ولذا لم يقل : واذا خلوهم الى شياطينهم ، بل قال : ( واذا خلوا الى شياطينهم ) ليدل على مدى التلطف إلى الخلو بهم ، والتفرد معهم ، فالفعل ( خلا ) إما لازم بمعنى انفرد ، وإما متعد بمعنى ترك وتجاوز يقال : افعل كذا وخلاك ذنب ، أى : تركك وتجاوزك ولم يصبك .

فشان المنافقين مع المؤمنين لقاء يعقبه ترك لهم ، وخلو الى ما يريدون مع شياطينهم ، وهذا يدل على بغضهم للمؤمنين - كما قلت - وعلى مدى حبهم وإخلاصهم لشياطينهم ، وحرصهم على الخلو إليهم والتفرد بهم ، ومما يؤكد هذا المعنى تلك الاضافة ( شياطينهم ) التى تدل على الاختلاط والامتزاج والحب المتبادل بينهم ..

ولذا كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية : ( آمنا ) ومخاطبتهم شياطينهم بالجملة الاسمية المؤكدة : ( إنا معكم إنما نحن مستهزئون ) لأن كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد ، يكون بلا توكيد ، ليدل على أن النفس غير ممثلة به ، وغير حريصة عليه ولعلمها أنه لا يروج عنها إذا جاء على لفظ التوكيد والمبالغة ، لهذا كان خطاب المنافقين المؤمنين بلا توكيد ( آمنا ) وأما خطابهم إخوانهم للشياطين ، فنابح من قلوبهم ، صادر عن أريحية وصدق

رغبة ، وأنفسهم به ممتلئة ، وهم على ثقة أن ما قالوه سيكون رائجا  
ومتقبلا منهم ، ولذا جاء مؤكداً ( إنا معكم إنما نحن مستهزئون ) .

ومن هنا يتضح لك أن أضرِب الخبر لا يعمل فيها دائماً على  
حال المخاطب ، بل قد يعمل على أمور أخرى غير حال المخاطب ،  
كحال المتكلم ومدى انفعاله بالخبر أو عدم انفعاله به ، وارتياحه له  
أو عدم ارتياحه ، وحرصه عليه أو عدم حرصه ، ، كما رأينا فى  
الآية الكريمة ( ٣٧ ) .

وفصلت جملة ( إنما نحن مستهزئون ) عن جملة ( إنا معكم )  
لكمال الاتصال لأنها تؤكد لها وتقرير ، ويصح أن يكون الفصل  
للاستئناف البيانى ، كأنهم حين قالوا ( إنا معكم ) اعترضوا عليهم  
فسألوهم : فما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون (أهه) الإسلام ؟ فأجابوا  
( إنما نحن مستهزئون ) .

أما جملة ( الله يستهزئ بهم ) فقد فصلت عما قبلها إما لشبه  
كمال الانقطاع ، لأنه يصح عطفها على الجملة الشرطية ( إذا خلوا  
ولكن عطفها عليها يوهم العطف على قوله ( إنا معكم ) فيتدرج فى  
فى مقول المنافقين ، أو على قوله ( قالوا ) فيتقيد بالظرف ، فدفعاً  
لهذا التوهم كان الفصل .

وإما أن يكون الفصل للاستئناف البيانى ، وكأن سائلاً سأل :  
ما مصير هؤلاء المنافقين ، وكيف كانت معاملة الله تعالى والمؤمنين  
إياهم ؟ فأجيب ( الله يستهزئ بهم ) . . .

وإسناد الاستهزاء إلى لفظ الجلالة يفيد المبالغة فيما ينزل بهم  
من النكال ، ويحصل بهم من الهوان والذل ، كما يدل على أن الله سبحانه  
وتعالى يكفى عباده المؤمنين التصدى للمنافقين ، وينتقم لهم ، ولا

---

( ٣٧ ) ارجع إلى كتابنا على المعانى ج ١ ص ٥٠ لتقف على الأمور  
الأخرى التي يعمل عليها فى إلقاء الخبر غير حال المخاطب .

يحوّجهم إلى الرد عليهم ومعارضتهم ، وذلك تعظيماً للمؤمنين ، وإعلاء لشأنهم ..

والمراد باستهزاء الله بهم : عقابهم جزاؤهم على استهزائهم ، فهو مجاز مرسل ، حيث أطلق السبب وأريد المسبب ، أطلق الاستهزاء وأريد جزاؤه ، وذكر العقاب بلفظ ( الاستهزاء ) فى صفة قولهم : ( إنما نحن مستهزءون ) مشكلة لطيفة ، ومثله قوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » (٣٨) وقوله عز وجل : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٣٩) .

والعدول إلى التعبير بالمضارع فى قوله تعالى : ( يستهزئ ) بعد التعبير بالاسم فى قوله عز وجل : ( نحن مستهزءون ) يفيد حدوث الاستهزاء وتجده وقتاً بعد وقت ، أى : يفيد التجدد الاستمرارى ، وهذا أبلغ من الاستمرار الثبوتى الذى تفيدته الجملة الاسمية ، لأن البلاء اذا استمر ثابتاً قد يهون وتالفه النفس ، واذا تجدد كان أنكى وأشد ، ولذا كانت نكيات الله تعالى فيهم ، ونزول الآيات فى شأنهم أمراً متجدداً مستمراً ، قال تعالى : « أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين » (٤٠) وقال عز وجل : « يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم » (٤١) .

وتقديم لفظ الجلالة المسند إليه فى قوله ( الله يستهزئ بهم ) على خبره الفعلى يفيد الحصر ، أى : قصر الاستهزاء بهم على الله وحده ، دون المؤمنين تعظيماً لشأنهم ، حيث ينتقم سبحانه وتعالى لهم ، ولا يحوّجهم الى التصدى للمنافقين ومعارضتهم - كما ذكرنا .. وهذا شأن المسند اليه عندما يقدم على خبره الفعلى فى الاثبات

- 
- (٣٨) الشورى : ٤٠ .
  - (٣٩) البقرة : ١٩٤ .
  - (٤٠) التوبة : ١٢٦ .
  - (٤١) التوبة : ٦٤ .

نحو أنا أكرم الضيف ، محمد يصنع المعروف ، وقولهم فى المثل :  
(أتعلمنى بضب أنا حرشته ) فهو يفيد إما التوكيد ، كما فى المثاليين  
وإما الحصر كما فى المثل ، وكما فى الآية الكريمة ، وذلك حسبما يقتضى  
السياق (٤٢) .

وإيثار التعبير بإنما فى قوله تعالى : (إنما نحن مستهزءون)  
يفيد أن استهزاءهم أمر واضح جلى ، لا يجهله أحد ، ولا ينكره  
منكر ، ولذا كان عقابهم أشد وأبلغ - كما بينا فى قوله تعالى :  
( الله يستهزىء بهم ) .

ووراء الإضافة فى قوله : ( شياطينهم ) .. ( طغيانهم ) معان  
لطيفة ، فهى تدل على مدى انغماسهم فى الضلال ، وتأصلهم فى  
الطغيان ، إذ صارت لهم شياطين تضاف إليهم ، وتعرف بهم ، وهم  
قراء السوء ، كما صار لهم طغيان ينسحب عليهم ، ويندرجون  
تحتة ، وقد عرفوا به واشتهروا ، وبات خاصا بهم ، وملازما لهم ،  
لا ينصرف الى من عداهم ممن يطغى ، وهذا المعنى يفتقد ، لو عرف  
الطغيان بالألف واللام ، وعدل عن إضافته إليهم ، ف قيل : ويمدهم  
فى الطغيان ..

ولا يخفى علينا أن الوصل بين الجملتين : ( يستهزىء بهم ) ،  
( ويمدهم فى طغيانهم ) ، للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، حيث  
اتفقت الجملتان فى الخبرية لفظا ومعنى ، ومما حسن الوصل بين  
الجملتين تناسبهما فى كون المسند فيهما مضارعا ، وتناسبهما أيضا  
فى القيد ( بهم ) .. ( فى طغيانهم ) وكذا القول فى الوصل بين  
الجملتين : ( اذا لقوا ... ) ( واذا خلوا ... ) .

وأوثر التعبير ( بالعمه ) دون ( العمى ) فى قوله تعالى :  
( يعمهون ) لأن المراد بالعمه : التردد والتحير ، ويستعمل فى الرأى

خاصة ، وأما العمى فإنه يستعمل فى الرأى وفى البصر ، فالعمه  
أخص فى الاستعمال ، وقد أوثر بالتعبير ، لأن المراد عمى البصيرة ،  
لا عمى البصر . . .

( أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم  
وما كانوا مهتدين )

فصلت هذه الآيه عما قلها ، ويرجع هذا الفصل إما إلى أنها  
مقررة لقوله تعالى : ( الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم  
يعمّهون ) فالفصل بينهما لكمال الاتصال ، أو الى أنها تعليل  
لاستحقاقهم الاستهزاء الأبلغ ، والمد فى الطغيان ، فالفصل بينهما  
للاستئناف البيانى ، وكأن سائلا سأل : لم يستهزىء الله بهم هذا  
الاستهزاء ، ويجازيهم هذا الجزاء ، ويذيقهم ذلك الذل والهوان ؟  
فأجيب : لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ( أولئك الذين اشتروا الضلالة  
بالهدى ) .

ويمكن أن يكون الفصل للاستئناف البيانى ، ولكن ليس بالاعتبار  
المذكور ، بل بكون التعليل ينسحب ويمتد الى جميع صفات المنافقين  
التي جليت فى الآيات المقدمة ، فإن السامع بعد سماع أحوالهم ،  
وإجراء تلك الأوصاف عليهم ، كأنه يسأل : كيف اتصف هؤلاء بهذه  
الأوصاف المشينة ؟ ومن أين جاءتهم هذه القبائح ودخلت عليهم تلك  
الشنائع ؟ فيجاب بأن أولئك المستبعدين إنما جسروا عليها لأنهم اشتروا  
الضلالة بالهدى ، فخرسوا صفتهم ، وفقدوا الاهتداء الى الطريق  
المستقيم ، ووقعوا فى تيه الحيرة والضلال ، وهكذا يمتد الترابط ،  
وتتغلغل العلاقات بين الجمل الى أعماق بعيدة ، ولا تقف عند حد الجمل  
المتجاورة . . .

والتعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد ( أولئك ) يدل على بعد  
منزلتهم فى الشر وسوء حالهم ، تنزيلا للبعد المعنوى منزلة البعد  
الحسى ، وعندما يأتى اسم الإشارة بعد عدة صفات فيشار به إلى أن

من تعددت صفاتهم قد استحقوا الجزاء الواقع بعده بسبب تلك الصفات التى عددت ، عندما يأتى كذلك يكون له موقع لطيف حسن ، كما فى الآية الكريمة ، فقد توالى قبل صفات المنافقين ، ثم ذكر اسم الإشارة ( أولئك ) فنبه الى أن من تقدمت أوصافهم جديرون بالجزاء المذكور بعد ، وهو قوله تعالى : ( فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ) ويستحقونه ، وصاروا له أهلا ، بسبب تلك الصفات المتقدمة ..

ومن ذلك قوله تعالى ( أولئك هم الوارثون ) فى سورة (المؤمنون) فقد ذكرت الإشارة بعد تعداد صفات المؤمنين ، فنبهت إلى جدارتهم بالجزاء المذكور بعد ، وكذا القول فى قوله تعالى عقب ذكر صفات المؤمنين فى هذه السورة الكريمة ( أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ) - كما بينا - .

وقد قصر المسند على المسند إليه فى قوله ( أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ) لأن تعريف الموصول للجنس فهو بمنزلة التعريف بال التى للجنس ، وهو قصر حقيقى غير تحقيقى ، لأنه قائم على المبالغة ، والدلالة على بلوغهم الكمال فى اشتراء الضلالة ، وكان من عداهم من الكفار وإن شاركوهم فى ذلك الشراء ، لا يعتد بمشاركتهم لبلوغ أولئك المنافقين الغاية فى اشتراء الضلالة بالهدى .

وقد استعير الاشتراء للاختيار والاستبدال فى قوله تعالى : ( اشتروا الضلالة بالهدى ) ، ثم اشتق من الاشتراء ( اشترى ) بمعنى: اختار الضلالة واستبدالها بالهدى ، لأن الاشتراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر ..

ولا يقال : كيف اشتروا الضلالة بالهدى ، وهم ليسوا على هدى ؟ وكيف يدفعون ثمننا ليس بأيديهم ؟ لأن المراد تمكنهم من الهدى وعرضه لهم ، فكأنه فى أيديهم ، فاذا تركوه الى الضلالة فقد عطلوه واستبدلوا به ، أو لأن المراد بالهدى الفطرة التى جبلوا عليها ، وقد

كانوا على هذا الهدى بلا شبهة وكان حاصلها لهم حقيقة ، فإن كل مولود يولد على الفطرة ، ثم استبدلوا به الضلالة . .

و ( الضلالة ) و ( الهدى ) مجازان مشهوران ، لأن المعنى الحقيقى للضلالة : الجور عن القصد ، وللهدى : التوجه اليه ، فاستعيرت الضلالة للعدول عن الصواب فى الدين ، والهدى للاستقامة عليه ، وقد اشتهر هذا المجاز حتى صار كالحقيقة . .

وفى اسناد الربح الى التجارة فى قوله تعالى « فما ربحت تجارتهم » مجاز عقلى ، حيث أسند الفعل الى مفعوله ، وأصل الإسناد : فما ربحوا فى تجارتهم ، والتجوز فى الإسناد فى الآية يفيد المبالغة فى خسرانهم وبوار تجارتهم . .

ويعد هذا المجاز العقلى ترشيحا للاستعارة فى قوله تعالى : « اشتروا الضلالة بالهدى » اذ ترشيح المجاز اقتترانه بصفة او تفریح كلام يلائم معناه الحقيقى بعد استيفاء القرينة ، وذكر الربح والتجارة فى الآية مما يلائم المعنى الحقيقى للفظ الاشتراء ، وذلك يقوى الاستعارة ، ويحقق المبالغة فى التصوير ، وكأن الكلام على الحقيقة . . يقول الإمام الزمخشري : ( هذا من الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ثم تقفى بأشكال لها وأخوات اذا تلاحقن لم تر كلاما أحسن منه ديباجة ، وأكثر ماء ورونقا ، وهو المجاز المرشح ) ( ٤٣ ) .

---

( ٤٣ ) الكشاف ١/ ١٩٢ وعكس الترشيح : التجريد ، وهو أن يقرن المجاز بما يلائم المعنى المجازى للفظ المستعار بعد استيفاء القرينة كما فى قول البحرى :

يؤدون التحية من بعيد إلى قمر من الإيوان باد  
حيث استعير القمر للانسان الجميل ثم قرن بما يلائم المعنى  
المجازى وهو قوله من الايوان باد ، فاذا لم تقترن الاستعارة بما  
يلائم أحد المعنيين . كانت استعارة مطلقة . . . ارجع الى كتابنا  
علم البيان ص ٢٠٥ وما بعدها .

وقد وصل بين الجملةين ( فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ) بالواو وعطفها معا على قوله تعالى : ( اشترؤا الضلالة بالهدى ) بالفاء ، وهذا العطف يشير الى سرعة الخسران ووقوعه عقب الشراء ، فبمجرد اشترؤ الضلالة بالهدى تحقق الخسران المبين ، فلم يحققوا ربحا ، بل لم يبق لهم رأس المال أصلا ..

فالذى يطلبه التجار من تجارتهم أمران : سلامة رأس المال ، والربح وهؤلاء قد أضاعوا الأمرين معا ، لأن رأس مالهم كان الهدى ، ولم يبق لهم مع الضلالة ، وحيث لم يبق لهم رأس مال ، فكيف يوصفون بتحقيق ربح ؟ ولذا كان العطف بالفاء فى قوله : ( فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ) مؤذنا بسرعة الخسران والبوار ، ووقوعهما مباشرة عقب اشترؤ الضلالة بالهدى ..

( مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاعت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون • صم بكم عمى فهم لا يرجعون ) •

بعد أن كشفت الآيات السابقة عن أحوال المنافقين ، وجلت خصالهم ، وبينت ما طبعوا عليه من صفات ، عقب هنا بضرب المثل لهم ، زيادة فى الكشف عن خصالهم وأحوالهم ، وإبرازها فى معرض المحسوس المشاهد مبالغة فى البيان والإيضاح ..

فالفصل بين هذه الآية الكريمة ( مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ) وما تقدمها ، لكمال الاتصال ، لأنها منزلة مما قبلها منزلة عطف البيان ، اذ هى كاشفة وموضحة ومبينة ، بل بها زيادة فى الكشف والإيضاح والتبيين لما سبق ذكره من أحوال المنافقين ، فقد جلّت هذه الأحوال وبينتها فى صورة محسوسة مشاهدة عن طريق ضرب المثل •

والمراد بالمثل : الحال العجيبة ، أو الصفة الغريبة ، أو القصة ذات الشأن ، على سبيل الاستعارة ، كأنه قيل : صفتهم الغريبة ، وخالهم العجيبة الشأن ، كحال رجل استوقد نارا ، استعير لفظ ( المثل ) لهذه الحال أو لتلك الصفة أو للقصة الغريبة العجيبة الشأن .

ومجىء المثل بهذا المعنى كثير فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، ولنقرأ الآيات : « ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع . . . مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار . . . الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . . . » (٤٤) وفى الحديث ( مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً . . . مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها . . . مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كعشل قوم استهموا على سفينة . . . ) فالمراد بالمثل فى مثل هذه الآيات والأحاديث: الصفة الغريبة ، أو الحال العجيبة ، على سبيل الاستعارة .

مثل الله عز وجل حال المنافقين فى حيرتهم وتخبطهم وقلقهم واضطرابهم بحال الذى استوقد نارا ليستضىء بها ، وما كاد ضوء النار يبدو ويضىء له ما حوله ، حتى خمد ، حيث ذهب الله بغورهم ، فبقوا متخبطين متحيرين ، فى ظلمات يعمهون لا يبصرون .

والتشبيه فى الآية تشبيه مركب ، اذ المراد تشبيه حال المنافقين وما يدور بخلداهم من قلق ، وما يعترهم من اضطراب ، وما يغيشون فيه من حيرة وتخبط ، وتلك هيئة مركبة ، شبهت بهيئة أخرى ، وهى حال المستوقد الذى استوقد نارا ليستضىء بها ، فكان من شأنه ما وصف الله عز وجل .

وعندما نعمن النظر فى الصياغة نجد أن : التعبير بالفعل

(٤٤) الآيات بالترتيب : الفتح : ٢٩ ، محمد : ١٥ ، النور : ٣٥ .

( م ٤ - البلاغة التطبيقية )

( استوقد ) يدل على شدة حاجته إلى النار ، وأنه متلهف لها بأذل أقصى جهده للحصول عليها ، وهذا ينبىء بمدى خوفه وقلقه ، وإحاطة الظلام به ، وتطلعه إلى أدنى نار تكشف ما أحاط به من ظلام ، وتبث الطمأنة ، وتذهب الخوف ، ولذا وردت ( ناراً ) نكرة للدلالة على التقليل ، فهو متلهف إلى نار قليلة تضئ له إضاءة ما ..

وقيل إن التنكير يدل على التعظيم ، لأن النار التي استوقدها المستوقد أضاعت ، والإضاءة أعم وأكثر إشعاعاً من الإنارة ، ثم إنها قد أضاعت جميع الجهات ، حيث قال : ( ما حوله ) ليدل على أن الإضاءة ، قد أحاطت به ، وأضاعت جميع جأته ، وهذا لا يكون إلا إذا كانت النار عظيمة هائلة ...

وأرى أن هذا القول أولى بالقبول لتلائمه مع السياق ، ودلالته على المبالغة فى الأسى والتحسر الذى أصاب المستوقد ، إذ بدت النار عظيمة ، أضاعت كل الكون من حوله ، ثم خمدت فجأة ، وذهب الله بها كلية ، مع حاجته الشديدة إليها ورغبته الملحة فى استبقائها ، وهذا مما يزيد تحسره ويضعف أساه ..

والتعبير بلما فى قوله ( فلما أضاعت ما حوله ) يدل على سرعة الزوال ، فما كاد الضوء يبرز حتى زال وخبأ ، وذهب الله به ، والنور قد سطع شديداً ، وبدد الظلام من كل جانب ، ولذا عبر عنه بقوله ( أضاء ) والإضاءة فرط الإنارة ، قال تعالى : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا » (٤٥) وجعل الإضاءة تشمل جميع الجهات ، فقال ( ما حوله ) والحوال يدل على الدوران والإطافة ، ومع ذلك فقد خبا الضوء وخمد ، وذهب الله به ذهاباً تاماً فور ظهوره فلم يبق للمستوقد أى نور ، وهذا ما يبعث الأسى والحسرة كما قلت .

فألضياء بزغ شديدا عم كل الجهات - كما أوضحنا - واختفى سريعا اختفاء تاما ، على الرغم من شدة الاحتياج إليه ، ومما يصور الاختفاء التام قوله تعالى : ( ذهب الله بنورهم ) فالذهاب قد أسند إلى الله ، ثم قال : ذهب به ، ولم يقل : أذهبه ، و ( ذهب به ) أبلغ لإفادتها المصاحبة ، ولم يقل : ذهب الله بضوئهم ، بل ( بنورهم ) لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة ، ولو قيل : ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة دون أصل النور ، والغرض إزالة النور عنهم رأسا ، وطمسه ، أصلا ، مبالغة في حلول الظلام ..

وكذا قوله تعالى : « وتركهم في ظلمات لا يبصرون » فترك هنا بمعنى : جعل ، أى : صيرهم وجعلهم في ظلمات ، لأنها إذا تعدت لمفعول واحد كانت بمعنى : طرحه وخلاه ، وإذا تعدت لمفعولين كانت متضمنة معنى التصيير والجعل ، قال عنتره :

فتركته جزر السباع ينشنه ما بين قلة رأسه والمعصم (٤٦)

وما فى الآيه من الثانى ، فهى مضمنة معنى التصيير والجعل ..

وقد جمعت ( ظلمات ) ونكرت ووصفت بقوله : ( لا يبصرون ) وذلك للتهويل والإبهام ، فهى ظلمات مبهمة مهولة ، تراكم بعضها فوق بعض ، وأطبقت عليهم فاخترت أبصارهم ، فصاروا لا يبصرون .

ومفعول ( لا يبصرون ) محذوف ، وهذا الحذف من قبيل الطرح الذى لا يلتفت إلى إخطاره بالبال ، وليس من قبيل المقدر المنوى ، وكان الفعل صار غير متعد أصلا ، والمعنى : تراكمت عليهم الظلمات فاخترت أبصارهم ، فلم يعودوا من أهل الإبصار ..

---

(٤٦) جزر السباع : اللحم الذى تأكله لأنها تجزره بأنيابها ، والنوشى : تناول السهل ، والمعصم : موضع السوار من الساعد .

وبهذا يتضح لنا كيف يولغ في تصوير حلول الظلام بهم ، وذهاب  
الضوء الذى لم يكد يرى حتى خبا وخمد ، وذهب الله به ، فصاروا فى  
ظلمات ، وصاروا لا يبصرون ..

وجواب ( لما ) فى قوله تعالى : ( فلما أضاعت ما حوله ذهب  
الله بنورهم ) إما أن يكون قوله ( ذهب الله بنورهم ) ، وإما أن يكون  
محذوفا ، وتقديره : فلما أضاعت ما حوله خبت وخدمت ، فصاروا  
فى ظلام يتخبطون متحسرين على فوت الضوء الذى تعبوا فى استيقاده ،  
وعندئذ يكون قوله ( ذهب الله بنورهم ) جملة مستأنفة استئنفا بيانيا ،  
وكان سائلا سال : لم خدمت النار فجأة ، وحل الظلام سريعا ،  
بعد ظهور الضوء الذى كدوا فى استخراجة ؟ فيأتى الجواب : لأن الله  
ذهب بنورهم ..

ويصح أن يكون الفصل لكمال الاتصال ، على أن جملة  
( ذهب الله بنورهم ) مبينة لجملة التمثيل ، منزلة منها منزلة البديل ..  
والتشبيه - كما ذكرت - تشبيه مركب ، مثلت فيه حال المنافقين  
وما هم فيه من قلق واضطراب ، وحيرة وتخبط ، يلوح لهم نور الإيمان  
حينما عندما يجرون كلمة الإسلام على ألسنتهم ، ولكن النور سرعان  
ما يذهب لتمكن الكفر من قلوبهم ، مثلت هذه الحال العجيبة بحال  
المستوقد الذى كد فى استيقاد النار لحاجته إلى الضوء ، وما كاد  
الضوء يبدو ويلوح له حتى ذهب ، فصار فى ظلام لا يبصر ، ووجه  
الشبه هو الوقوع فى حيرة الحرمان والخيبة بعد ظهور تابشير الرجاء .

وفصل قوله تعالى : ( صم بكم عمى ) عما قبله للاستئناف  
البيانى ، وكان سائلا يسأل عند سماع قوله تعالى : ( مثلهم كمثمل  
الذى استوقد ناراً ) ، فقال : لم صاروا فى هذه الحيرة وذاك الاضطراب؟

ولماذا كان تخطبهم فى الضلال حتى شبهوا بما شبهوا به ؟ فجاء الجواب : لأنهم سدوا عن الإصاخة للحق مسامعهم ، وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم ، وأن يبصروه بأعينهم ، وكان وسائل إدراكهم قد إيفت - كما يقول الزمخشري - أى : أصيبت بأفة ، وتعطلت وانتقض بناؤها ، فصاروا صما بكما عميا ..

والآية من قبيل التشبيه البليغ ، وهو ما حذف أداته ووجهه كقولهم : هم ليوث ، وهم بحور ، ولا يقال : إن المشبه فيها محذوف ، قد طوى عن الجملة ، لأن حذفه على نية التقدير ، فهو فى حكم المنطوق به ، ونظيره قول عمران بن حطان يخاطب الحجاج :

أسد على وفى الحروب نعامه

فتخاء تنفر من صفير الضافر

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى

بل كان قلبك فى جناحى طائر (٤٧)

والتقدير : أنت أسد على ونعامه فى الوغى .

وقد خلط بعض العلماء هذا التشبيه البليغ بالاستعارة ، فأدخلوه فيها ، وعدوه منها ، نظرا لما يفيد من المبالغة ، ولكن المحققين أبقوه فى دائرة التشبيه ، إذ الاستعارة ، إنما تطلق عندما يطوى ذكر المستعار له ، ويجعل الكلا خلوا منه ، كقولك : رأيت ليوثا تحارب وبحورا تتصدق (٤٨) .

(٤٧) فتخاء : مسترخية الجناحين ، وهى صفة لازمة للنعامه ، وغزالة : هى امرأة شبيب الخارجى ، ويقال : إنها دخلت الكوفة فى ثلاثين فارسا ، وفيها ثلاثون ألف مقاتل ، فصلت الفجر ، وقرأت البقرة .

(٤٨) ارجع إلى كتابنا : دراسات بلاغية ٩٧ ،

وقوله تعالى : ( فهم لا يرجعون ) تقدم المسند إليه ( هم ) على خبره الفعلى ، فأفاد توكيد نفي الرجوع ، لأنهم قد طبع على قلوبهم ، وصاروا صما بكما عميا ، فأنى لهم الرجوع إلى الهدى وقد باعوه واشتروا الضلالة ، وأنى لهم التخلّى عن الضلال وهم فيه يتخبطون لا يدرون أينقدمون أم يتأخرون ..

« أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين • يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير »

ثنى - عز وجل - بتمثيل آخر فى شأن المنافقين ، ليكون كشفا لحالهم بعد كشف ، وإيضاحا بعد إيضاح ، لأن المقام مقام تفصيل ، يقتضى الإشباع ، للكشف عن خصال هؤلاء المنافقين ، وتجلية حقيقة أمرهم ..

وقد أوتر فى عطف أحد التمثيلين على الآخر التعبير بالحرف ( أو ) دون الواو ، للدلالة على صحة التشبيه بكل واحدة من القستين منفردة ، وبهما معا ، ولو عطف بالواو لربما أوهم صحة التشبيه بمجموعهما فقط ، دون التشبيه بكل واحدة منهما منفردة ، فالعطف بـ ( أو ) جعل القستين سواء فى استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل ، فبايتهما مثلت فأنت مصيب ، وإن مثلت بهما جميعا فأنت مصيب أيضا (٤٩) •

والتمثيل هنا أيضا من قبيل التمثيلات المركبة كالتمثيل السابق ،

---

(٤٩) ومرجع ذلك إلى أن ( الواو ) لمطلق الجمع ، و ( أو ) للدلالة على التسوية ،

لأن المراد تشبيه هيئة حاصلة من مجموع أشياء ، قد تضامت وامتزجت حتى صارت شيئاً واحداً ، بهيئة أخرى مثلها ، فقد مثلت حالة المنافقين وهم يتخبطون فى الضلال ، وقد أصابتهم الحيرة والدهشة ، واشتد عليهم الأمر ، بحال من يكابد فى ظلمة الليل وقد أطفئت ناره ، بعد إيقادها ، ثم مثلت هنا فى هذا التشبيه بحال من أخذتهم السماء فى الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق .

وفى إثارة التعبير بكلمة ( صيب ) دون المطر أو الواابل ، وتكثيرها دلالة على التهويل ، لأنه أريد نوع من المطر شديد هائل يصيبهم ، وكان لفظ ( صيب ) يصور صورة الانصباب عليهم تهويلاً وتفضيلاً ، ثم ذكر جهة الانصباب ( من السماء ) والصيب لا يكون إلا من جهتها مبالغة فى التهويل ، كما فى قوله تعالى : « فخر عليهم السقف من فوقهم » ( ٥٠ ) وخرور السقف لا يكون إلا من فوق . .

ومجىء لفظ ( السماء ) معرفة يدل على أن الصيب يصيبهم من غمام مطبق ، أخذ بأفاق السماء ، وليس يتصوب من أفق واحد من بين سائر الآفاق ، لأن كل أفق من آفاقها سماء ، فالصيب يطبق عليهم من جميع الآفاق . .

ثم نكرت هذه الألفاظ ( ظلمات ورعد وبرق ) للدلالة على أنها أنواع لا تدرك ولا يحاط بها ، وكذلك جمعت الظلمات للدلالة على تكاثفها وتراكمها ، لأنها ظلمات تكونت من ظلمة الليل ، وظلمة إظلال الغمام ، وظلمة تكاثف المطر وانتساجه بتتابع القطر ، فهى ظلمات تراكم بعضها فوق بعض ، ولذا جمع لفظ ( ظلمات ) وأفرد لفظى ( رعد وبرق ) إذ ليس فيهما ما فى الظلمات من التكاثر والتراكم والتداخل .

وهكذا يتضح لك ما فى التعبير من مبالغات فى التصوير ، تبعث الهول ، وتثير الرعب والخوف ، ولا يجد المنافقون ما يتقون به هذه الأهوال إلا أن يجعلوا أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت .

قالوا ؛ إن المراد بقوله تعالى : ( أو كصيب ) : أو كمثل ذوى صيب ، فحذف المضاف ، والذى أحوج إلى هذا التقدير أن المعنى على تصوير حال المنافقين بحال قوم أخذتهم السماء على الصفة المذكورة ، فلقوا منها ما لقاها .

وهذا يختلف عن تشبيه أعمال الكفار فى قوله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » .  
أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب . . . » (٥١) .

لأن التشبيه هنا فى سورة ( النور ) تشبيه لأعمال الكفار ، ولذا لم يحتج إلى تقدير فى التشبيه الثانى ( أو كظلمات ) ، أما التشبيه فى سورة ( البقرة ) ، فهو تشبيه لأحوال المنافقين بحال من أخذتهم السماء - كما ذكرت - ولذا احتاج المعنى إلى تقدير مضاف فى التشبيه الثانى ( أو كصيب ) .

وفصل قوله تعالى : ( يجعلون أصابعهم فى آذانهم ) عما قبله لثبه كمال الاتصال المسمى بالاستئناف البيانى ، لأنه لما ذكر ما يؤذن بالشدة والهول من الظلمات والرعد والبرق ، فكان قائلاً سأل : كيف كانت حالهم مع هذه الأهوال ؟ فجاء الجواب : ( يجعلون أصابعهم فى آذانهم ) .

وفى ( أصابعهم ) مجاز مرسل علاقته الكلية حيث أطلق الأصابع وأراد الأنامل ، وذلك للمبالغة فى سد الأذان خوفا ورعبا ، ومن المعلوم أن الذى يسد الأذن أصبع خاصة ، هى السبابة ، ولكنه عدل عنها وذكر الاسم العام ( الأصابع ) لغرضين :

الأول : أن السبابة فعالة من السب ، فكان اجتنابها أولى بأداب القرآن ، ولذا فقد استبشعوها وكنوا عنها بالمسبحة والسبحة والمهتلة ..

الثانى : أنه لا يلزم أن يسدوا مسامعهم فى تلك الحال بالسبابة ، لأنهم فى حال حيرة ودهشة ، فأى أصبع اتفق لهم أن يسدوا بها فعلوا دون مراعاة المعتاد فى ذلك ، إذ المقام مقام حيرة ودهشة .

وفى ذكر ( الصواعق ) والحذر من الموت ، فى قوله تعالى : ( من الصواعق حذر الموت ) تعليلا لجعل الأصابع فى الأذان ، مما يدل على شدة الهول وفرط الرعب والخوف ..

وقوله تعالى : ( والله محيط بالكافرين ) جملة اعتراضية الغرض منها : التنبيه على أن الحذر من الموت لا يفيد ، لأن الله محيط بهم ، وقد وضع الاسم الظاهر ( الكافرين ) موضع الضمير ، إذ الأصل : والله محيط بهم ، وذلك للدلالة على أن أصحاب الصيب كفار ، فيظهر عندئذ استحقاقهم ما وصف من شدة الأهوال وفرط الرعب ، لأن الإهلاك الناشئ عن السخط أشد ..

وجعل بعضهم هذه الجملة الاعتراضية من أحوال المشبه ، على أن المراد بالكافرين : المنافقون ، وهى تدل على أنه لا مدفع لهم من عذاب الله فى الدنيا والآخرة ، وقد وسطت بين أحوال المشبه به تنبيها على شدة الاتصال بينهما ، ودلالة على فرط الاهتمام بشأن المشبه .

.. وإحاطة الله تعالى بالكافرين مجاز ، إملا استعارة تبعية فى

لفظ ( محيط ) حيث شبه شمول قدرته تعالى إياهم ، بإحاطة المحيط بما أحاط به ، ووجه الشبه امتناع الفوت فى كل ، واشتق من الإحاطة محيط.بمعنى : شامل القدرة ..

وإما استعارة تمثيلية حيث شبهت حاله تعالى معهم ، وقدرته عليهم ، بحال المحيط مع المحاط به ، أى : شبه هيئة منتزعة من عدة أمور بأخرى مثلها ، واستعيرت هيئة المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية ..

وفصل قوله تعالى : ( يكاد البرق يخطف أبصارهم ) عما قبله للاستئناف البيانى، وكان سائلايسال : فكيف كانت حالهم مع هذه الأهوال، ومع مثل ذلك البرق ؟ فأجيب : ( يكاد البرق يخطف أبصارهم ) .

وكذا الفصل بين جملتى ( يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه . . . ) لأن الأولى منهما تضمنت سؤالاً فحواه : كيف يصنعون فى حال خفوق البرق وفى حال اختفائه ؟ فأجيب : ( كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا . . . ) .

وراء التعبير بكلمتى ( كلما ) و ( قاموا ) معنى لطيف وتصوير دقيق ، فمع أن البرق يكاد يخطف أبصارهم إلا أنهم يحاولون ، ولديهم رغبة قوية فى التخلص من هذا الموقف الصعب ، فكلما أضاء البرق لهم ممشى مشوا فيه مع خطورة المشى ، ولذا لم يقل : سعوا فيه ، أو عدوا فيه ، لأنهم يخطون فى حذر من تخطف أبصارهم ، والسعى والعدو لا يناسب كل منهما مقام الحذر ، وإذا أظلم عليهم قاموا واستعدوا للانطلاقه عندما تحين الفرصة ، ففى القيام تأهب وتهيؤ ..

والفعل ( أضاء ) إما متعد حذف مفعوله ، والتقدير : كلما أضاء لهم ممشى مشوا فيه ، وإما لازم بمعنى ( لمح ) وكذا الفعل ( أظلم ) إما متعد والتقدير : أظلم عليهم مكانهم ، وإما غير متعد وهو الظاهر ..

واستخدام ( كلما ) مع الإضاعة يشعر بحرصهم على المشى ،  
فكلما صادفوا فرصة انتهزوها ، وليس كذلك التوقف عند الإضلام ،  
ولذا استخدم معه ( إذا ) ثم قال ( قاموا ) فدل على تأهبهم وتهيئهم  
للوثبة الجديدة عندما تحين فرصتها لأن ( قام ) تدل على الوقوف والثبوت  
مع تحفز وتأهب كما يقال : قامت الحرب على ساقها ، وأقام الصلاة ،  
وقام بهذا الأمر وقام عليه .

وفى قوله تعالى : ( ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم )  
حذف مفعول المشيئة لدلالة جواب الشرط عليه ، والمعنى : ولو شاء  
الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها ، والسر البلاغى لهذا  
الحذف هو البيان بعد الإبهام ، وللبيان بعد الإبهام أثر طيب ووقع  
فى النفس ، لأن الشيء عندما يبهم تتطلع النفس وتتشوق إلى معرفته ،  
فعندما يجيء البيان يقع فى النفس موقعه ، إذ جاءها وهى متطلعة  
إليه ، مترقبة له ..

وقد كثر حذف مفعول المشيئة والإرادة ، فلا يكاد يذكر إلا إذا كان  
غريبا ، كما فى قوله تعالى : « لو أردنا أن نتخذ لهموا لاتخذناه من  
لدنا إن كنا فاعلين » (٥٢) ، وقوله عز وجل : « لو أراد الله أن يتخذ  
ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء » (٥٣) ، وكما فى قول أبى الهندام  
الخرزاعى فى الرثاء :

قضى وطرا منك الحبيب المودع

وحل الذى لا يستطيع فيدفع

ولو شئت أن أبكى دما لبكيتيه

عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

---

(٥٢) الانبياء : ١٧ .

(٥٣) الزمر : ٤٠ .

فإن اتخاذ اللهو والولد وبكاء الدم مما يستغرب ، ولذا لزم ذكره  
والتصريح به ، اعتناء بشأنه ، ولا يكتفى فيه بدلالة الجواب عليه ،  
لذهاب الوهم إلى غيره ، بناء على استبعاد تعلق الفعل به عندئذ لغرابته .  
وقد مر بنا السر البلاغى وراء أفراد السمع وجمع الابصار  
عند حديثنا عن الآية الكريمة « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى  
أبصارهم غشاوة » (٥٤) فعد إليه هناك .

وختام الآية الكريمة بقوله تعالى : ( إن الله على كل شيء قدير )  
يتناسب مع ما ذكر في الآيات من تصوير لحال المعاندين ، وما يصيبهم  
من شدة الهول ، وفرط الرعب ، لكفرهم وعنادهم ، وهذا ما يعرف  
في البديع بتشابه الأطراف ، وقد وضع الاسم الظاهر ( لفظ الجلالة )  
موضع الضمير ، إذ الأصل أن يقال : إنه على كل شيء قدير ، لتقدم  
ذكره عز وجل في قوله : ( ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم )  
والسر البلاغى وراء هذا العدول تربية المهابة ، وإبراز القدرة بالإسناد  
إلى صريح الاسم الجليل ، إذ ليس الإسناد إلى الضمير كالإسناد إلى  
الاسم الظاهر .

هذا وقد ذكر الزمخشري - رحمه الله - أن التشبيه الثانى  
( أو كصيب ) أبلغ من التشبيه الأول ( مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً )  
لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفضاعته ، ولذا أصر ، وهم  
يتدرجون فى نحو هذا من الآهون إلى الأغلظ (٥٥) .

ومرجع ذلك إلى تضاعف العناصر ، التى تصور الحيرة والشدة ،  
من الصيب والظلمات والرعد ، والبرق الذى يكاد يخطف الأبصار ،

(٥٤) البقرة : ٧٠

(٥٥) الكشاف ١/ ٢١٣٠

والصواعق المخيفة التى تجعلهم يبالبغون فى سد مسامعهم خوفاً  
من الموت .

وعندما نقول : إن هذا التشبيه أبلغ من ذلك ، فإننا نريد : المبالغة :  
أى : أن كلمة ( أبلغ ) مأخوذة من المبالغة ، لا من البلاغة ، والمقام  
هو الذى يقتضى تلك المبالغة - وكما قال الزمخشري : هم يتدرجون فى  
مثل هذا من الأهون إلى الأغلظ - حيث اقتضى المقام ذلك التدرج .

وعندما نمعن النظر فى عناصر الصورة الثانية ( أو كصيب )  
نراها تحمل الخير والشر ، فالصيب فيه الرعد والبرق ، والرعد والبرق  
قد يكون خيراً ، ويسفر عنه الغيث النافع ، وقد يكون شراً وصواعق  
مهلكة ، ولذا كان العربى يعد سبعين برقة وينتجع فلا يخطيء الغيث  
والكلاء ، وإلى هذا أشار المتنبى بقوله :

وقد أرد المياہ بغير ہاد سوى عدى لها برق الغمام

والذين أعرضوا عن الإيمان ، وظلوا فى ظلمات الحيرة يهلكون  
أنفسهم ، والذى يهلكهم كان فيه النفع والخير ، لو تنبهوا له وحصلوه  
وحرصوا عليه ، ولكنهم اشتروا الضلالة بالهدى الذى كان بين يديهم ،  
فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين .

## ( ٢ )

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون • واتقوا النار التي أعدت للكافرين • وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون • وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين • الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين • والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون • أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين • قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين • هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين • ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين • إن يمسخم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين • وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين • أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين • ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون • وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين • وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين » ( ١ ) •

بدأت هذه الآيات الكريمة بالنداء للتنبيه وإيقاظ المشاعر والأحاسيس ، وقد أوتر حرف النداء ( يا ) الموضوع لنداء البعيد ، والله عز وجل أقرب إلى عباده من حبل الوريد ، للإيذان بأن الخطاب الذى يتلوه معنى به جدا ، فإن نداء القريب قد وضع له ( أى ) والهمزة ، فإذا استخدم فى نداءه ( يا ) فقد يكون ذلك للتنبيه على أنه قد سها وغفل ، فنزل لغفلته منزلة البعيد ، وقد يكون فطنا غير غافل ، ولكن الأمر الآتى بعد النداء من الأمور المهمة المعنى بها ، فتستخدم ( يا ) لتنبه إلى ذلك وتلفت إليه ، كما فى الآية الكريمة ، وقد كثر فى القرآن الكريم النداء على هذه الطريقة ، لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامر ونواه ، وعظات وزواجر ، ووعد ووعيد ، ونحو ذلك مما أنطق به كتابه ، أمور عظام ، ومعان ينبغى أن يتيقظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها ( ٢ ) .

و ( أى ) : وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام ، وهو الذى يعمل فيه حرف النداء والاسم التابع له صفته ، وهو لا ينفك عنها ، ولا يستقل بنفسه ، لما فيه من إبهام تجليه هذه الصفة ، وفى هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التوكيد والتنبيه .

و ( ها ) كلمة تنبيه مقحمة بين الصفة وموصوفها ، وهى تقوى حرف النداء ( يا ) لتقاربهما فى المعنى ، فحرف النداء فيه تنبيه وإيقاظ للمدعو ، وحرف التنبيه ( ها ) مما يقوى ذلك الإيقاظ ويؤكدده .

كما أنها تقع عوضا عما يستحقه ( أى ) فإن ( أيا ) حقه أن يضاف ، كما فى قوله تعالى : « ثم لننزعن من كل شيعة أيبهم أشد

على الرحمن عتيا » ( ٣ ) .

( ٢ ) انظر الكشاف ١ / ٢٢٦ .

( ٣ ) مريم : ٦٩ .

وكما فى قول النابغة الذبياني :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

أو تنوين يقوم مقام المضاف إليه ، كما فى قوله تعالى : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » (٤) ولا مجال هنا للتنوين بسبب بناء ( أى ) للنداء ، فجعلت كلمة التنبيه ( ها ) المناسبة للنداء عوضا عن المضاف إليه ..

وبعد أن نبه النداء وأيقظ المشاعر وهيا النفوس للتلقى : توالى النهى والأمر : « لا تأكلوا الربا .. واتقوا الله ... واتقوا النار .. وأطيعوا الله والرسول ... وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة .. » والنفوس عندما تتلقى هذه الأوامر والنواهي ، وهى مهياة يقظة يكون ذلك أدهى للقبول والإجابة وسرعة الامتثال ..

وفى تقديم النهى عن الربا على تلك الأوامر المذكورة ، إيذان بشدة خطره ، ومبالغة فى تحريمه وحظره ، لأنه كان شائعا إذ ذاك ، ولذا خص بالنهى هنا دون غيره من سائر ما نهى عنه فى مواضع أخرى من آيات الذكر الحكيم ..

وقد أوتر فى النهى عن الربا التعبير بالأكل : ( لا تأكلوا الربا ) دون غيره من أنواع الأخذ والتناول ، ووجوه التصرف الأخرى ، لأن الأكل أكثر وجوه الإنفاق ، كما أنه الصفة المشتركة بين الإنسان والحيوان ، ولكن الحيوان يأكل كل ما يقع عليه دون نظر إلى كونه من حقه أو من حق غيره ، أما الإنسان فلا يأكل إلا ما كان من حقه ، فإذا ما انهدم هذا الفرق وصار الإنسان يأكل ما هو له ، وما هو من حق غيره ، فقد تدنى إلى مرتبة الحيوان ، وصار كالأنعام التى

فقدت التمييز ، ولذا كان فى التعبير بالأكل دون غيره زيادة فى التشنيع والتقبيح ..

ونجد ذلك شائعا فى آيات الذكر الحكيم التى تناولت تحريم الاعتداء على أموال الغير ، ولنقرأ ( ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل .. وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ... إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا ... الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المسى ... » ( ٥ ) .

فالمراد النهى عن الاعتداء على أموال الغير بأى وجه من وجوه الاعتداء ، وقد عبر بالأكل خاصة للدلالة على التفضيع والتنفير ، وزيادة فى التشنيع والتقبيح ، إذ العربى يتذمم بملء البطن ، وكثرة الأكل ، ويعد ذلك من البهيمية ..

وقد قيد النهى عن الربا بكونه أضعافا مضاعفة ، ولا يعنى تقييد النهى عن أكل الربا بذلك القيد ( أضعافا مضاعفة ) أن أصل الربا غير منهى عنه ، وأنه إذا لم يكن أضعافا مضاعفة جاز أكله ، وإنما المراد النهى المطلق ، وقد جرى بالقيد للتنفير والدلالة على التبشيع ، وهذا شائع فى كلامهم ، يقولون : لا تضيع حق جارك الصالح ، لا تضيع دينك بكسرة خبز ، وهم لا يريدون بذلك إباحة تضيع حق الجار غير الصالح ، وجواز إضاعة الدين إذا غلا ثمنه ، وإنما يريدون حبس المخاطب على التمسك بدينه ، وحفظ حقوق جاره مطلقا ، وقد جرى بالقيد ليكون المخاطب أكثر استجابة وأسرع انقيادا ، لما فى التقييد من تقبيح يدعو إلى النفور والابتعاد وسرعة الاستجابة ..

( ٥ ) الآيات بالترتيب : البقرة ١٨٨ ، النساء ٢ ، ١٠ ، البقرة ٢٧٥ .

ولنتأمل قوله تعالى : « ولا تکرهوا فقیاتکم علی البغاء إن أردن

تحصنا » (٦) .

وقوله عز وجل : « وآتوا الیتامی أموالهم ولا تتبدلوا

الخبیث بالطیب ولا تأکلوا أموالهم إلی أموالکم إنه کان حوبا کبیرا » (٧)

وقوله جل وعلا « فإن أنستم منهم رشدا فادفعوا إلیهم

أموالهم ولا تأکلوها إسرافا وبدارا أن یکبروا » (٨) .

وقوله عز من قائل : « وإذا حضر القسمة أولوا القربی والیتامی

والمساکین فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » (٩) .

نجد أن هذه الآیات قد قید النهی فیها - والأمر فی الآیة الأخیرة -

بقید ، والغایة المقصودة من القید التشنیع والتنفیر ، وليس

المراد وقف النهی والأمر علی القید الذی قید به الفعل المنهی عنه ،

أو المأمور به .

ففی آیة سورة النور ، عبر بالإکراه ( لا تکرهوا ) والمراد النهی

عن البغاء سواء أکان عن طریق الإکراه للفتیات أو بإقبالهن طواعیة ،

ثم جیء بهذا القید ( إن أردن تحصنا ) والفتاة لا تکره علی البغاء

إلا عند ارادتها التحصن والتعفف ، فالقید تأکید للإکراه المنهی عنه ،

وفیه مزید من التفضیح والتنفیر ، وإبراز للصورة فی أبشع صورها ،

فتاة تتعفف وتتحصن ، وسید یکرهها علی البغاء ، صورة تستبشعها

النفوس المننة وتاباها النفس الکریمة ، فتمثل وتسرع بالإجابة ،

وذلك هو المقصود والمرجو من التقیید .

(٦) النور : ٣٣ .

(٧) النساء : ٢ .

(٨) النساء : ٦ .

(٩) النساء : ٨ .

وقل مثل هذا القول فى تقييد النهى عن اكل أموال اليتامى بقوله تعالى « إلى أموالكم ٠٠٠ إسرافا وبدارا أن يكبروا » وفى تقييد الأمر بالعطاء وقول المعروف فى قوله : ( فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا ) بحضور القسمة ( وإذا حضر القسمة ) فهم يعطون ويقال لهم المعروف سواء حضروا القسمة أو لم يحضروا ، ولكن التقييد بالحضور فيه حث للوارث على عطائهم ودفح قوى له لترضيتهم ٠٠ ( ١٠ )

عرفنا أن أسلوب النداء فى الآية الكريمة ( يا أيها الذين آمنوا ) قد نبه وأيقظ ، وهيا النفس لتلقى ما يلقي إليها من أمور مهمة ، وقد جاء بعد هذا التنبيه الموصول وصلته ( الذين آمنوا ) فجلى ما فى ( أى ) من إسهام وأوضحه - كما ذكرنا - وللإيضاح بعد الإبهام اثر ووقع فى النفس ، إذ فيه توكيد وتقرير للمعنى ٠٠

كما أن وسمهم بالإيمان ونداءهم به ، فيه تذكير لهم بأصل العقيدة وحث لهم على أن يتمسكوا بها ، ويحرصوا على تحصيل ما يحقق لهم ذلك ، ويجعلهم له أهلا ، وعندئذ يقبلون على ما يلقي إليهم ويجدون فى تحصيله وتحقيقه ٠٠٠

وبعد أن هيئت النفوس هذه التهيئة ، وكان ما رأيت من حث وإيقاظ وتنبيه ، وأصبحت النفوس مهياة للإصغاء ومتطلعة لما سيلقى إليها ، تواتت هذه الأساليب : ( لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلمكم نفلحون ، واتقوا النار التى أعدت للكافرين ، وأطيعوا الله والرسول لعلمكم ترحمون ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة ٠٠ ) وهى أساليب إنشائية - كما ترى - بدأت بالنهى ( لا تأكلوا ) ثم عطفت عليه تلك الأوامر ( اتقوا الله ٠٠٠ اتقوا النار ٠٠٠ أطيعوا الله والرسول ٠٠٠ سارعوا ٠٠٠ ) فالوصل بين

هذه الجمل للتوسط بين الكمالين ، مع عدم المانع من الوصل ، ووجود المناسبة المسوغة له ، حيث اتفقت في كونها إنشائية لفظاً ومعنى ..

وقد اقترن الرجاء بالأمر في قوله تعالى : ( واتقوا الله لعلمكم تفلحون ) . وفي قوله عز وجل : ( وأطيعوا الله والرسول لعلمكم ترحمونه )

فلعل موضوعه للترجى أو للإشفاق ، بمعنى أنها موضوعة لإنشاء توقع أمر مرغوب فيه أو مرهوب منه . فالأول الترجى كقولك : لعل الله يرحمنا ، والثانى الإشفاق كقولك : لعل الساعة آتية ..

ولعل في الآيتين للترجى ، واقتران الرجاء بالأمر في الموضعين يفيد أن المؤمن ينبغي أن يكون دائماً بين الرجاء والخوف ، يخضع لأمر الله ويستجيب له ، ويحذر المخالفة ، فيتجنب النهى ، وهو في نفس الوقت يطمع في كرم الله ، فيرجو الفلاح ، ويرجو رحمة ربه ..

وقد فصل بين جملتي : ( اتقوا الله ، لعلمكم تفلحون ) وكذا بين جملتي ( أطيعوا الله والرسول ، لعلمكم ترحمونه ) للاستئناف البياني المسمى بشبه كمال الاتصال ، حيث تضمنت الجملة الأولى في كل منهما سؤالاً ووقعت الثانية جواباً له ، وكان سائلاً سأل : لم يتق المؤمن ربه ، ويطيع الله ورسوله ؟ ما جزاؤه ؟ وما الذى يرجوه ؟ فجاء الجواب : لعلمكم تفلحون .. لعلمكم ترحمونه ..

ووصفت النار بقوله عز وجل : ( التى أعدت للكافرين ) للمبالغة فى التخويف والتحذير ، وقد قالوا : هذه أخوف آية فى القرآن ، حيث توعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه فى اجتناب محارمه ( ١١ ) .

والتعبير بالفعل الماضى ( أعدت ) يدل على أن النار مخلوقة ومعدة للكفار منذ قديم ، وكذلك الجنة ، كما سيأتى فى قوله تعالى :  
( وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ) .

وحذف الفاعل فى قوله تعالى : ( أعدت للكافرين ) لوضوحه والعلم به ، كما يدل هذا الحذف وبناء الفعل للمفعول على تهويل العذاب وتفخيمه ، وينبىء بأن النار قد أعد فيها من صنوف العذاب مالا يحيط به الوصف ، وما يذهل أمامه العقل ، فيشغل عن أعدده ، ولا يتطلع إلى معرفته ، وكذا القول فى حذف الفاعل ، وبناء الفعل للمفعول فى قوله : ( أعدت للمتقين ) فهو يدل على التعظيم والتفخيم ، وينبىء بأن الجنة قد أعد فيها للمؤمنين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فالمخاطب يشغله ذلك النعيم ، ويأخذه فلا يسأل عن أعدده ، ولا يشغل به ..

وفى قوله تعالى : ( وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض ) عبر بالفعل ( سارع ) حثا على الإقبال والمبادرة والمنافسة « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » (١٢) فليس المراد مجرد الإسراع إلى الجنة ذاتها ، إلى تحصيل أسبابها ، وفى هذا من المبالغة والإقبال ، وإنما المراد المنافسة فى تحقيق ما أمروا به وتحصيله ، وكان المعنى : فليسارع بعضكم بعضا إلى ذلك الخير وليسابق بعضكم بعضا إلى تحصيله والفوز به ..

والمسارعة المأمور بها مسارعة إلى تحصيل أسباب المغفرة ، وأسباب الفوز بالجنة من الإيمان والأعمال الصالحة ، فالمعنى على حذف مضاف ، والتقدير : سارعوا إلى أسبابهما ، وفى هذا الحذف حث على المبادرة والامتثال ، فهو يجعل المسارعة إلى مغفرة الله ، وإلى

الجنة ذاتها ، لا إلى تحصيل أسبابهما ، وفى هذا من المبالغة فى الحث على الامتثال ما فيه . .

ونكرت كل من المغفرة والجنة فى قوله : ( إلى مغفرة من ربكم وجنة ) للدلالة على التعظيم ، ويؤكد هذا المعنى - معنى التعظيم - وصف كل منهما بما وصفت به ، فقد وصفت المغفرة بأنها من الرب ( من ربكم ) وفى ذكر معنى الربوبية وإضافتها إلى المخاطبين إظهار لمزيد اللطف بهم ، والتجاوز عن سيئات التائبين ، وغفران ذنوبهم كما وصفت الجنة بقوله تعالى : ( عرضها السموات والأرض ) ، فهذان الوصفان يؤكدان معنى التعظيم الذى دل عليه تنكير كل من اللفظين . .

وقدمت المغفرة على الجنة فى قوله ( مغفرة من ربكم وجنة ) لأن غفران الذنوب والتجاوز عن السيئات أولى ، فالإنسان يتطلع إلى دفع ما يضره ، ويحرص على أن يتم أولا ، ثم يكون ثانيا دخول الجنة ، وهم يقولون : إن درء المضار مقدم على جلب المنافع ، والتخلية مقدمة على التحلية . .

والتشبيه فى قوله تعالى : ( عرضها السموات والأرض ) تشبيهه بليغ ، حذفت أدواته ، ووجه الشبه ، كما حذفت المضاف فى المشبه به ، والتقدير : عرضها كعرض السموات والأرض فى السعة والبسطة ، والمراد من التشبيه وصف الجنة بالسعة والبسطة ، وقد بولغ فى هذا الوصف من عدة جهات :

١ - كون التشبيه بليغا قد حذفت أدواته ووجهه . .

٢ - حذفت المضاف من المشبه به ، إذ التقدير : وجنة عرضها كعرض السموات والأرض .

٣ - التعبير بالعرض دون الطول ، وقد جرت العادة بأن العرض أدنى من الطول ، فإذا كان عرضها السموات والأرض ، فما بالك بطولها ؟ والعرب كثيرا ما تصف الشيء بالعرض إذا أرادوا المبالغة فى وصفه بالسعة ، فهم يقولون : أعرض فى المكارم ، يريدون : توسع فيها وبالغ فى تحصيلها . . .

( الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ) .

فصلت هذه الآية الكريمة عما قبلها للاستئناف البياني ، كأن سائلا سأل عند سماعه قوله تعالى ( وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ) فقال : من هم أولئك المتقون ، الذين نالوا ذلك الشرف ، وأعدت لهم تلك الجنة ؟ وخصهم الله بهذه المنزلة ؟ فأجيب : خص الله بهذه المنزلة الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس . . .

( فالذين ) مفعول به لفعل محذوف ، تقديره : يخص الذين ينفقون ، وهذا الحذف يدل على تعظيم المتقين ، إذ يؤدى إلى سرعة الإفصاح عن الصفات المذكورة ، وإجرائها عليهم ، دون أن يحول النطق بالمحذوف بين تلك الصفات وسرعة إجرائها على المتقين (١٣) .

كما حذف مفعول ( ينفقون ) ليتناول كل ما يصلح للإنفاق ويصح أن يكون المعنى على عدم إرادة المفعول ، إجراء للفعل المتعدى مجرى اللازم مبالغة فى الإنفاق والبذل ، كما فى قولهم : فلان يعطى

---

(١٣) لك أن تجعل ( الذين ينفقون ) فى محل جر نعتا للمتقين ، أو بدلا منه ، أو عطف بيان ، وأن تجعله فى محل نصب على تقدير فعل محذوف كما بينا ، والمعنى : يخص الله بمغفرته وجنتيه الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين . . .

وَيَمْنَع ، أى : يكون منه الإعطاء والمنع ، والمعنى على ذلك : الذين  
يكونون منهم الإنفاق والبذل فى السراء والضراء ..

وقد عبر عن الإنفاق بالفعل المضارع ، فى قوله تعالى : ( الذين  
يَنفِقُونَ فى السراء والضراء ) وعبر عن كظم الغيظ والعفو عن الناس  
بالاسم فى قوله عز وجل : ( والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس )  
وذلك لأن الإنفاق أمر يتجدد ، فعبر عنه بما يفيد التجدد وهو الفعل  
المضارع ، وأما الكظم والعفو فقد عبر عنهما باسم الفاعل ( الكاظمين  
والعافين ) للدلالة على الثبوت والدوام والاستمرار ، فالكظم والعفو  
عادة ثابتة فيهم ، وهم دائمون عليها ومستمرون ، لا ينفكون عن الاتصاف  
بها ، وأما الإنفاق فيتجدد وقوعه منهم ، ولذا عبر عنه بالمضارع الذى  
يفيد التجدد والحدوث ..

وتقيد الإنفاق بكونه ( فى السراء والضراء ) يدل على أنهم ينفقون  
فى جميع الأحوال ، لأنها لا تخلو من حال مسرة وحال مضرة ،  
فحال السرور لا تمنعهم من المعروف ، وحال المحنة والابتلاء لا تحول  
بينهم وبين الإنفاق والعطاء ..

وقوله تعالى : ( والله يحب المحسنين ) تذييل مؤكد لمضمون ما  
قبله (١٤) و ( آل ) فى ( المحسنين ) إما للجنس ، فيتناول كل محسن ،  
ويدخل فيه أولئك المذكورون ، وإما للعهد فتكون إشارة إلى هؤلاء  
المذكورين وإطلاق ( المحسنين ) عليهم يؤذن بأن الصفات المذكورة  
من باب الإحسان الذى هو الإتيان بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق ،  
وجعل ( آل ) للعهد أولى ، لأنه أدخل فى مدحهم ، والثناء عليهم .

(١٤) التذييل هو تعقيب جملة بجملة أخرى تشتمل على معناها لإفادة  
المبالغة ، كما فى قوله تعالى : ( ذلك جزيناهم بما كفروا  
وهل نجازى إلا الكفور ) سبأ : ١٧ ، فقوله : ( وهل نجازى  
إلا الكفور ) تذييل مؤكد لما قبله ، وكذا قوله : ( والله يحب  
المحسنين ) تذييل مشتمل على معنى ما قبله مؤكداً له .

وقد قدّم المسند إليه ( لفظ النجالة ) على خبره الفعلي في :  
( والله يحب ) لتوكيد منجبة الله لهؤلاء المحسنين ، وهذا شأن ذلك  
التعبير ، فعندما يقدم المسند إليه على خبره الفعلي في الإثبات نحو :  
محمد يقوم .. عبد الله نجح .. هو يقرى الضيف ، فإن ذلك التقديم  
يفيد التوكيد غالباً ، وقد يفيد القصر حسبما يقتضى السياق وقرائن  
الأحوال .. (١٥)

وترجع دلالة هذا التعبير على التوكيد إلى أن تقديم المسند إليه ينبه  
المخاطب ويثقله مثلثاً ومترقباً للخبر الذي سيخبر به ، فعندما يأتى  
الخبر يقر في الذهن ويكون له أثر بحسن ووقع طيب ، كما أن تقديم  
المسند إليه قد أدى إلى إسناد الفعل إلى فاعله مرتين ، مرة باعتبار  
فاعله وأخرى باعتباره مبتدأ ، وتكرار الإسناد توكيد .. (١٦) .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذُكِّرُوا اللَّهَ  
فَانْتَفَرُوا تَتُوبُهُمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُضِرُوا عَلَىٰ مَنْ  
فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

عطف هذه الآية على الآية قبلها ، ووقعتا معا بيانا للمتقين الذين  
أعدت لهم الجنة ووعدهم الله مغفرة منه وفضلاً ، فقد بينت الآيتان  
أن هؤلاء المتقين قسمان ، قسم أقبل على الطاعات ، فأنفق في السراء  
والصراء وكظم الغيظ وعفا عن الناس ، وقسم أذنب فتأب فغفر  
الله ذنوبهم ، وصار حالهم كحال من لم يذنب ، فاستحقوا الكرامة  
والإتصاف بالثقوى .

وكلا القسمين مُحسن ، أما الأول فقد أحسن إلى الغير والله يحب

---

(١٥) أنظر الحديث عن قوله تعالى : ( الله يستهزىء بهم ) في ص ٤٣  
(١٦) الأول تعليل عبد القاهر والثاني تعليل السيكاكي : (انظر دلائل  
الإعجاز ص ١٥٩ ومفتاح العلوم ص ٩٣ :

المحسنين ، وأما الثانى فقد أحسن إلى النفس بالتوبة من الذنوب ،  
والمؤمن العاصى إذا تاب كانت توبته إحسانا منه إلى نفسه ، والله  
يحب التوابين ويحب المتطهرين ..

والتعبير ( بإذا ) دون ( إن ) يدل على أن خطأ المؤمن واقع  
لا محالة ، ولكنه يبادر بالتوبة والاستغفار ، ولا يصر على المعصية  
« إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم  
مبصرون » (١٧) وسوسة الشيطان واقعة لا محالة ، وخطأ المؤمن  
التقى واقع أيضا لا محالة ، ولذا عبر بإذا فى الموضعين ، وإذا كان  
خطأ المؤمن واقعا ومحققا ، فإنه يبادر بالتوبة إلى ربه ، ويتذكر  
عقابه ووعيده ، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول ( كل ابن آدم خطاء  
وخير الخطائين التوابون ) .

وقوله تعالى : ( فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ) قالوا :  
الفاحشة هى الكبيرة كالزنا ، وظلم النفس : الصغائر كالثقل واللمسة  
ونحوهما ، وقالوا الفاحشة : البالغة فى القبح ، والظلم : الذنب مطلقا ،  
صغيرا أو كبيرا ، وعلى هذا القول فذكر ظلم النفس بعد ذكر الفاحشة  
من باب ذكر العام بعد الخاص تنويها بشأن الخاص لذكره مرتين ،  
مرة مستقلا ، وأخرى مندرجا تحت العام ..

وفى قوله تعالى : ( ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ) حذف المضاف  
وتقديره : ذكروا عقابه أو وعيده أو نهيه أو حقه العظيم  
وجلاله وجماله الموجب للاستحياء منه والخشية له ، فالحذف - كما  
نرى - يفيد الدلالة على العموم والشمول ، واتساع المعنى لكل ما يتذكره  
العاصى التائب إلى ربه ..

كما حذف مفعول ( فاستغفروا ) لوضوحه وشهرته وذيوعه ،  
إذ لا يخفى على ذى عقل أن الاستغفار واقع على الله تعالى ، ويصح  
أن يكون الفعل المتعدى ( استغفروا ) قد أجرى مجرى اللازم فلا  
ينوى له مفعول ، والمعنى : ذكروا الله تعالى فكان الاستغفار ..

والعطف بالفاء ( فاستغفروا ) ينبىء بسرعة الاستغفار ، والمبادرة  
به عقب التذکر بلا إمهال أو توان ، وهو يدل - كما قلنا - على أن  
هؤلاء محسنون لأنفسهم ، إذ لا يتمادون فى الخطأ ، بل يبادرون  
بالإقلاع عنه ، وطلب المغفرة ..

وقوله تعالى : ( ومن يغفر الذنوب إلا الله ) أسلوب استفهام  
أريد به النفى ، والمعنى : ولا يغفر الذنوب إلا الله ، وفرق بين الدلالة  
على النفى بأدواته الموضوعية له ، مثل : لا وما ولم ولن وليس ،  
وبين الدلالة عليه بالاستفهام ، لأن فى الاستفهام تحريكا للفكر ،  
وتنبيهها للعقل ، وحثا على النظر والتأمل ، وتقريرا للمعنى وتأكيذا  
له ، وكأنه قيل : هل تعرفون أحدا يقدر على غفران الذنوب صغيرها  
وكبيرها حقيرها وعظيمها غير من وسعت رحمته كل شيء ؟ وعندما يتأمل  
المخاطب ، ولا يجد من يغفر إلا الله ، يتقرر ذلك المعنى ويتأكد ..

ولا يخفى علينا أن غفران الذنوب قد قصر على ( الله ) تعالى ،  
قصرا حقيقيا تحقيقيا ، فهو قصر صفة على موصوف ، وطريقه  
( النفى والاستثناء ) وقد عبر بهذا الطريق ( النفى والاستثناء )  
ليرتدع المنكرون وينزجر الجاهلون الذين يدفعون هذه الحقيقة ،  
وينكرونها ، وهذا القصر يوحى بأنه لا مغزى للمذنبين إلا كرم الله وفضله  
ورحمته التى وسعت كل شيء ..

وجملة القصر هذه ( ومن يغفر الذنوب إلا الله ) جملة اعتراضية  
اعتترضت بين المعطوف عليه ( فاستغفروا لذنوبهم ) والمعطوف ( ولم

يصروا على ما فعلوا ) أو بين الحال وصاحبها إذا اعتبر ( ولم يصروا )  
حالا ، وهذا الاعتراض يدل على المبادرة بالمغفرة والاهتمام بشأن الغفران  
والتنبيه على تحقيقه بفضل الله وكرمه إذا تاب العبد وأتاب ..

وقد وضع الاسم الظاهر ( الذنوب ) وكذلك لفظ الجلالة موضع  
الضمير ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم  
ومن يغفرها إلا هو ، وهذا العدول عن مقتضى الظاهر يدل على أن  
الذنوب مهما عظمت يغفرها الله بتوبة العبد ، فعموه تعالى أكبر  
وأعظم ، ولذا كان العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر ( الذنوب )  
المقرون بلام الاستغراق دالا على أن الله يغفر الذنوب جميعا ، فلا يأس  
ولا قنوط من رحمة الله « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم  
لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا » (١٨) .

كما أن العدول عن الضمير إلى لفظ الجلالة يدل على عزة الله  
وحكمته ، فهو العزيز الذي لا يرد عليه أحد حكمه ، الحكيم الذي  
يغفر لمن تقتضى حكمته أن يغفر له ، وإسناد الغفران إلى ذاته العلية  
مع الحصر ، بعد وجود الاستغفار ، يدل على تحقق الغفران ومحو  
الذنوب بفضلته تعالى وكرمه ، وهذه بشارة عظيمة ، تحرك النفوس  
نحو التوبة والإنابة إلى الله تعالى ..

وقوله تعالى : ( ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ) عطف  
على قوله عز وجل ( فاستغفروا لذنوبهم ) أو حال منه - كما ذكرنا -  
والتعبير بما فى قوله ( على ما فعلوا ) يدل على التهويل من شأن  
المعصية والفواحش ، وينبه ويحث على اجتنابها والابتعاد عنها (١٩) .

(١٨) الزمر : ٥٣ .

(١٩) « ما » إما اسم موصول عائده محذوف ، وإما مصدرية ، والمعنى :  
ولم يصروا على الذي فعلوه ، أو على فعلهم .

وجملة ( وهم يعلمون ) جملة حالية من فاعل ( يصرؤا ) ،  
وقد حذف مفعول ( يعلمون ) وتقديره : وهم يعلمون قبح فعلهم ، وكان  
في حذفه تكريما لهؤلاء التائبين بعدم ذكر القبح ونسبته إليهم ..

وتعد الجملة الحالية ( وهم يعلمون ) قيذا ، وعندما يذكر  
القيد بعد الفعل المنفى ، يكون النفى مسلطا إما على القيد فقط أو  
عليهما معا ، كقولك : ما جئتك راكبا ، فيصح أن يكون المعنى : جئتك  
غير راكب ، وأن يكون : لا مجيء ولا ركوب ، وقد يكون النفى متوجها  
إلى الفعل فقط من غير اعتبار لنفى القيد أو إثباته ..

والمراد فى الآية الكريمة انصباب النفى على الفعل والقيد معا ،  
والمعنى وليسوا ممن يصرؤن على الذنوب وهم عالمون بقبحها وبالنهاى  
عنها وبالوعيد عليها ، لأنه قد يعذر من لا يعلم قبح القبيح .

( أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها  
الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ) .

عبر باسم الإشارة الموضوع للبعيد ( أولئك ) للإشعار ببعيد  
منزلتهم وسمو مكانتهم ، وهو مشار به إلى المتقين الذين وصفوا بما  
ذكر من أوصاف ، فدل على أن ما يرد بعده من جزاء فالمشار إليه  
جدير به ، وهذا من ألطف مواقع اسم الإشارة ، حيث يذكر مشارا به  
إلى شىء قد وصف بأوصاف عديدة ، ثم يجعل ما يترتب على تلك  
الأوصاف مسندا إلى اسم الإشارة ، فيدل اسم الإشارة عندئذ على أن  
المشار إليه قد استحق الجزاء المذكور ، وصار جديرا به من أجل  
الصفات المتقدمة التى اتصف بها ..

فقد وصف المتقون بأنهم ينفقون فى السراء والضراء ويكظمون  
الغيظ ويعفون عن الناس ، وإذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا

الله فاستغفروا ، ثم جاء اسم الإشارة فدل على أنهم جديرون بالجزاء المذكور ، وهو مغفرة ربهم وجنته من أجل صفاتهم المتقدمة . .

وهذا كثير فى آيات الذكر الحكيم ، كما فى قوله تعالى ( أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ) ( ٢٠ ) .

وقوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » ( ٢١ ) .

وقوله عز وجل : ( أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ) ( ٢٢ ) .

وقوله جل وعلا : ( الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون ) ( ٢٣ ) .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة ، وعليك أن ترجع إلى الآيات المذكورة فى موطنها من سورها ، وتقف على المشار إليه ، وصفاته المتقدمة ، التى اتصف بها واستحق من أجلها الجزاء المذكورالذى أسند إلى اسم الإشارة وجاء عقبه . .

والتنكير فى ( مغفرة ) وفى ( جنات ) يدل على التعظيم والتفخيم ، وقد أكد هذا المعنى - معنى التعظيم والتفخيم - بالوصف الواقع بعد كل من اللفظين ، حيث وصفت المغفرة بكونها ( من ربهم ) ووصفت الجنات بجملة ( تجرى من تحتها الأنهار ) .

وجمع الجنات هنا يدل على أنها جنات فى ضمن تلك الجنة

- 
- (٢٠) البقرة : ٥ .
  - (٢١) البقرة : ١٦ .
  - (٢٢) المؤمنون : ١٠ ، ١١ .
  - (٢٣) البقرة : ٢٧ .

التي أخبر سبحانه وتعالى عنها ووصفها بقوله : ( عرضها السموات والأرض ) وذلك الوصف للسعة والبسطة ، أما الوصف هنا فلاشتمالها على ما يزيد بها بهجة من الأنهار الجارية . .

وقدمت المغفرة على الجنات ، لأن دفع المضار أولى ومقدم على جلب المنافع ، والتخلية مقدمة على التحلية ، وقد أوضحنا ذلك فى قوله تعالى : ( وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة . . . ) .

وفى قوله تعالى : ( تجرى من تحتها الأنهار ) مجاز عقلى حيث أسند الفعل إلى مكانه ، والذي يجرى إنما هو الماء ، كما يقال : سار الطريق ، وسال الوادى ، وهذا المجاز يفيد المبالغة فى جريان المياه ، ويصور كثرتها ، وامتلاء الأنهار بها ، وقد قيد الجريان بقوله ( من تحتها ) ليدل على جمالها وحسن منظرها ، فإن أكرم الجنات منظرا ما كانت أشجارها مظلمة ، والأنهار تحت أشجارها مطردة ، واللام فى ( الأنهار ) إما للجنس ، وقد قصد به الإشارة إلى جنس الأنهار جمع النهر ، بلا قصد إلى العموم والاستغراق ، وإما لنعهد الخارجى التحقيقى إشارة إلى ما ذكر فى قوله تعالى : « مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى » ( ٢٤ ) .

وإيثار التعبير بالاسم فى قوله تعالى ( خالدين فيها ) للدلالة على دوام الخلود واستمراره ، وفيه تكريم لهم ، كما أن هذا التعبير فى جانب الكفار يدل على دوام خلودهم فى النار ، إهانة لهم وإذلالا

وقد صرح بالدوام والاستمرار فى قوله تعالى ( خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ) (٢٥) .

وقوله تعالى : ( ونعم أجر العاملين ) أسلوب مدح ، والمخصوص بالمدح محذوف ، والتقدير : ونعم أجر العاملين المغفرة والجنات ، وهذا المخصوص فى إعرابه ثلاثة أوجه ، يعرب مبتدأ مؤخرًا والجملة قبله خبر ، أو يعرب خيرا لىبتدأ محذوف ، والمعنى : ونعم أجر العاملين هو المغفرة والجنة ، أو يعرب مبتدأ محذوف الخبر ، وعلى الوجهين الأخيرين ، يكون التعبير من قبيل الإيضاح بعدم الإبهام ، وللإيضاح بعد الإبهام أثره فى تقرير المعنى وتأكيدة ..

وفى التعبير خروج على خلاف مقتضى الظاهر ، لأن المراد بالأجر الجزاء المذكور فى قوله تعالى : ( أولئك جزاؤهم .. ) فالأصل : ونعم هو أى : جزاؤهم فوضع الاسم الظاهر ( أجر العاملين ) موضع الضمير ، وذلك للنص على العمل والتصريح به ، وإبراز أن ما نالوه وفازوا به ، إنما هو بعملهم واستجابتهم ، فوضع الظاهر موضع الضمير قد صور الجزاء أجرا لعامل ، وفى ذلك إنجاز وتحقيق لوعده الله الذى وعد به من المغفرة والجنة ، لأن العامل يدفع له أجره ويوفى إياه ...

( قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ) .  
تنكير ( سنن ) يدل على التعظيم والتفخيم ، والمراد بالسنن : ما سنه الله فى الأمم المكذبة من وقائعه ، وهى وقائع عظيمة ، قال تعالى : « ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . سنة الله

في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» (٢٦) فقد جرت سنة الله أن يمهل المكذبين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ( وكذلك أخفريك إذا أخذ القبرى وهى ظليلة إن أخذه اليم شديد ) ( ٢٧ ) .  
 والتعبير بالماضى ( خلت ) ودخول ( قد ) عليه يدل على تحقق سنن الله ونفاذها ومضيها فى المكذبين ، فهى سنن قد خلت من قبل ،  
 أى : تحقق وقوعها ومضيها فيمن أعرضوا عن رسل الله وكذبوا . .

والأمر فى قوله تعالى ( سيروا فى الأرض فانظروا ) للحث على التأمل والتدبر ، وأخذ العظة والعبرة من أحوال الأمم السابقة .  
 وقد عبر بالحرف ( فى ) فقال ( فى الأرض ) والسير إنما يكون عليها لا فيها للدلالة على أن السير ينبغى أن يكون سيرا للنظر والبحث والتفتيش عن أخبار السابقين للاعتبار بها . .

والتعبير بالفاء ( فسيروا فى الأرض فانظروا ) يدل على وجوب المبادرة بالتأمل ، والإسراع بالنظر والتدبر ، وفى هذم الفباء إيدان بسببية الخلو ( قد خلت من قبلكم سنن ) للسير والنظر أو للأمر بهما .  
 واسم الإشارة فى قوله تعالى : ( هذا بيان للناس ) مشير به إلى الآية السابقة ( قد خلت من قبلكم سنن ) والمعنى : هذا الذى ذكره إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب ، وفيه حث لهم على النظر فى سوء عواقب المكذبين قبلهم ، والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم . .

ويصح أن تكون الإشارة إلى ما لخص وبين من أمر الكفر والمثقين والتائبين ويكون قوله تعالى : ( قد خلت من قبلكم سنن فسيروا ) جملة

(٢٦) الأحزاب : ٦١ ، ٦٢ .

(٢٧) هود : ١٠٢ .

معتزضة للحث على الإيمان والتقوى والتوبة ، وهو ما يستحق به الذى ذكر من الأجر والجزاء ...

وسواء جعلت الإشارة إلى الآية السابقة ( قد خلت ) أو إلى ما لخص وبين من أمر الكفار والمتقين والتائبين ، فإن اسم الإشارة ( هذا ) قد جسد هذه المعانى المشار إليها وأبرزها واضحة شاخصة ، وإيثار التعبير بالاسم الموضوع للقريب ( هذا ) دون البعيد ( ذلك ) للإيدان بقرب الموعظة ووضوحها لمن أراد أن يتعظ ويتدبر ، وكان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد ..

والتنكير فى قوله تعالى : « بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » للدلالة على التعظيم ، وأل فى ( الناس ) إما للعهد والمراد بهم : المكذبون وإما للجنس ، والمعنى : هذا بيان لجميع الناس لكن المنتفع به المتقون ، لأنهم يهتدون به وينتجعون بوعظه ..

والمراد بالبيان الدلالة التى تفيد إزالة الشبهة ، فالبيان عام فى أى معنى كان ، والهدى بيان لطريق الرشده لیسلك دون طريق الغى ، والموعظة الكلام الذى يفيد الزجر عما لا ينبغى فى طريق الدين ( ٢٨ ) .

وعلى هذا فذكر الهدى والموعظة بعد ذكر البيان ، من قبيل ذكر الخاص بعد العام ، تنويها بشأن الخاص لذكره مرتين ، مرة مندرجا فى العام ، ومرة مستقلا بذاته ..

وعلى اعتبار أن الأمر فى قوله تعالى : « فسيروا فى الأرض فانظروا » للمؤمنين خاصة ، يكون ذكر المتقين من وضع الظاهر موضع الضمير ، إذ الأصل : وهدى وموعظة لكم ، فعدل عن هذا الأصل

إلى ما عليه النظم الكريم « وهدى وموعظة للمتقين » وسبب هذا العدول الإيذان بعلّة الحكم ، فإن مدار كونه هدى وموعظة لهم إنما هو تقواهم وعدم تكذيبهم (٢٩) .

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليلمح الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » .

المراد بالنهاى فى قوله تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا » تسليّة رسول الله - ﷺ - والمؤمنين عما أصابهم يوم أحد ، وتقوية قلوبهم ، وحثهم على القتال والجهاد ، والمعنى : لا تضعفوا عن قتال الأعداء والجهاد فى سبيل الله بسبب ما نالكم من الجراح يوم أحد ، ولا تأسوا على ما أصبتم به من قتل الأعداء ، لأنكم أنتم الأعلون . .

وهو معطوف على الأمر فى قوله تعالى : ( فسيروا فى الأرض ) والمعنى : سيروا فى الأرض فانظروا وتأملوا واعتبروا ، ولا تهنوا ولا تحزنوا ، فالنهاى معطوف على الأمر بالسير فى الأرض ، ومرتبطة به معنى ، والوصل بين الجملتين للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ووجود المناسبة ، حيث اتفقتا فى الإنشائية لفظا ومعنى . .

وقوله تعالى : « وأنتم الأعلون » بشارة للمؤمنين بالعلو والغلبة فهم الأعلى شأنًا ، وهم الأغلب ، أصابوا من الكفار يوم بدر أكثر مما أصاب الكفار منهم يوم أحد ، ونالوا منهم أيضا يوم أحد ، وشهداء المؤمنين فى الجنة ، وقتلى الكفار فى النار ، والمؤمنون يقاتلون لإعلاء كلمة الله ، والكفرة يقاتلون للشيطان وإعلاء كلمة الكفر ، ولذا

---

(٢٩) قيل الأمر فى قوله ( فسيروا ) للمؤمنين ، وقيل للكفار ، ويصح أن يكون الأمر للجميع .

فإن المؤمنين هم الأعلى شأنًا ، وهم الغالبون ، قال تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين • إنهم لهم المنصورون • وإن جنودنا لهم الغالبون » (٣٠) •

وتعرب جملة : ( وأنتم الأعلون ) حالا من الفاعل فى قوله تعالى : ( ولا تهنوا ولا تحزنوا ) وجوز بعضهم جعلها جملة معترضة بين النهى والشرط ( إن كنتم مؤمنين ) لأن الشرط متعلق به ، والمعنى : إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا ، وعلى جعلها حالية يكون الشرط متعلقا بها ، والمعنى : إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون ••

وقد أوتر التعبير بإن فى قوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » إلهابا لهم ، وحثا على تحقيق المعلق بالشرط ، فإن ذلك هو المقصود من الجملة الشرطية هنا ، كما يقال : إن كنت عملت لك فأعطني أجرى ، وإن كنت صادقًا فامتثل أمر ربك ، فالمقصود بالشرط تحقيق جوابه ، وهو إعطاء الأجر والامتثال •

وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله ، والتقدير : إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا ، أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون شأنًا وأنتم الغالبون ، والسر البلاغى وراء حذفه ، أن تذهب النفس كل مذهب فى تقدير الجواب والوقوف على المعنى ••

وفى قوله تعالى : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » عبر بالفعل المضارع ( يمسسكم ) والمس قد وقع ، لحكاية الحال الماضية ، والتعبير بإن يدل على أن ذلك لا يمس المؤمنين إلا نادرا ، عندما يخالفون أمر الله ورسوله ، كما حدث من الرماة يوم أحد ، أو عندما يغترون بكثرتهم ، كما وقع منهم يوم حنين ، فقد قالوا : لن نهزم اليوم عن قلة ، فهزموا لإعجابهم

بكثرتهم ، قال تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ٠٠ » (٣١) ولكن عندما يركنون إلى الله ، ويعتمدون عليه ، ويستمدون منه العون ، يكون النصر حليفهم ، قال تعالى : « ولينصرن الله مهن ينصره إن الله لقوى عزيز » (٣٢) .

وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله تعالى : « فقد مس القوم قرح مثله » والمعنى : إن نالوا منكم يوم أحد فلا تضعفوا ، فقد نلتهم منهم يوم بدر ، ولم يضعفهم ذلك ، ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال ، فانتهم أولى بذلك منهم ، أو المعنى : إن نالوا منكم في هذا اليوم فلا تحزنوا ولا تهنوا ، فقد تلتهم منهم قبل أن تخالفوا أمر رسول الله - ﷺ - ، وقتلتهم منهم نيفا وعشرين ، فهم يألمون كما تألمون .

والمماثلة المذكورة للقرحين في قوله تعالى : « فقد مس القوم قرح مثله » قالوا : هي كثرة القتل في الجملة ، فقد قتل من المشركين يوم بدر سبعون وأسر سبعون ، واستشهد من المسلمين في أحد خمسة وسبعون وجرح سبعون ، وقيل المراد بها مجرد الانهزام لا كثرة القتل (٣٣) .

وعلى جعل المسين في أحد ، فإن قرح المشركين كان مماثلا لقرح المسلمين أيضا ، فقد قتل منهم نيف وعشرون - كما ذكرنا - ورجعوا خائبين مع أكثرتهم وغلبتهم ، حيث حفظ الله رسوله والمؤمنين .

وفي قوله تعالى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » جاء

(٣١) التوبة : ٢٥ .

(٣٢) الحج : ٤٠ .

(٣٣) انظر روح المعاني ٦٨/٤ .

اسم الإشارة مشارا به إلى ما بعده « الأيام » كما فى الضمائر  
المبهمة نحو قوله تعالى : « إنه لا يفلح الكافرون » (٣٤) ،  
وقوله عز وجل : « فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى  
الصدور » (٣٥) وهذا يدل على التفخيم والتعظيم ، لأن الشئ إذا  
أبهم ثم وضح وفسر بدا عظيما جليا مؤكدا ، وثبت عندئذ فى  
النفس وقر ، وكان له أثره ووقعه ..

والمراد بالأيام : أوقات الظفر والغلبة الجارية بين الأمم  
الماضية والآتية ، ومنها يوما بدر واحد ، فال فى ( الأيام )  
للعهد ، وليس المراد بالأيام : الأيام العرفية (٣٦) .

وعبر بالفعل المضارع فى قوله تعالى : « نداولها بين الناس »  
للدلالة على التجدد والاستمرار ، وهذا يشعر بأن تلك المداولة سنة  
متبعة مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة إلى أن يأتى أمر الله تعالى ،  
ومن أقوالهم : الأيام دول ، والحرب سجال ، وفيه تسلية للمؤمنين  
عما أصابهم يوم أحد ..

وفى قوله تعالى : « وليعلم الله الذين آمنوا » حذف إما للمعلل  
وإما للعلة ، فالمعنى على الأول : وليعلم الله الذين آمنوا فعل ذلك ،  
فحذف الفعل المعلل ، واكتفى بذكر العلة « ليعلم الله الذين  
آمنوا » وهو من باب التمثيل بمعنى : فعل الله ذلك فعل من  
يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت ،

(٣٤) المؤمنون : ١١٧ .

(٣٥) الحج : ٤٦ .

(٣٦) وتعرب الأيام إما خبرا لاسم الإشارة ، والجملة بعدها خبرا ثانيا  
أو حالا العامل فيها معنى الإشارة ، وإما صفة أو بدلا أو عطف  
بيان والجملة بعدها هي الخبر ٢٠

فالله عز وجل لم يزل عالما بالأشياء قبل كونها ، وجعل علمه تعالى الذين آمنوا علة للمداولة يستقيم على التمثيل المذكور . . .  
وقيل : إن معناه ليعلمهم علما يتعلق به الجزاء ، فيحمل العلم على التعلق التنجيزى المترتب عليه الجزاء ، أى : ليعلمهم موجودا منهم الثبات على الإيمان . . .

ويصح أن يكون العلم من قبيل المجاز المرسل حيث أطلق السبب على المسبب ، أى : أطلق العلم وأريد التمييز ، والمعنى : ولитمييز الثابتون على الإيمان من الذين يعبدون الله على حرف فعل - عز وجل - ذلك . . .

وعلى الثانى ، وهو كون المحذوف العلة ، والمذكور معطوفا عليها يكون المعنى : وتلك الأيام نداولها بين الناس لتكون حكما وفوائد جمعة ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والسر البلاغى لهذا الحذف الدلالة على أن العلل غير منحصرة فيما عدد من الأمور ، فعلى العبد أن يصبر ، وألا يسوءه ما يجرى عليه من المصائب ، لأنه لا يشعر بما لله فى طيه من اللطاف ، ولا يدرى العبد أين يكون الخير ، أفيما طواه الله عنه وحجبه أم فيما أبرزه وأجراه عليه ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ( ٣٧ ) . . .

وقد التفت من التكلم فى قوله تعالى : ( نداولها ) إلى الغيبة فى قوله عز وجل : ( وليعلم الله ) والالتفات من صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، حيث ينتقل من إحدى طرق الكلام إلى الأخرى ، فلا يمضى الكلام على وتيرة واحدة ، بل

يقتضوع ، ومن شأن هذا التنوع أن يحرك الذهن ، وينبه العقل ،  
ويوقظ الحس والفكر ، فيدرك مرمى الكلام ، وتقر في الأذهان  
مقاصده ...

وفضلاً عن ذلك فإن الالتفات في الآية الكريمة أدى إلى التصريح  
بالاسم الجليل ( الله ) تربية للمهابة في النفوس ، وإشعاراً بكمال  
صفاته تعالى وكمال أفعاله ، وطمأننة للمؤمن الذي يركن إلى الله  
فيذهب همه ، ويثبت فؤاده ، وتستريح نفسه ، ويجد في ذلك  
تسلياً له عما أصابه ..

وقوله تعالى : « ويتخذ منكم شهداء » كناية عن التكريم  
والتعظيم ، لأن من اتخذ شيئاً لنفسه ، فهو يحبه ويعتز به ،  
ومن اتخذ الله شهيداً ، فقد اختاره وارتضاه ، والمعنى : وليكرم  
إناساً منكم بالشهادة .

والشهداء إما جميع شهيد ، والمراد بهم شهداء الحرب  
الذين قتلوا في سبيل الله ، وأراد بهم : شهداء أحد ، وإما جمع  
شاهد ، والمعنى : ويتخذ منكم شهداء بما ظهر من ثباتهم على  
الحق ، وصبرهم على الشدائد ، وغير ذلك من شواهد الصدق ،  
ليشهدوا على الأمم يوم القيامة ، قال تعالى : « وكذلك جعلناكم  
أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم  
شهيداً » (٣٨) .

وقوله تعالى : « والله لا يحب الظالمين » جملة اعتراضية ،  
اعترض بها بين المعطوف والمعطوف عليه ، وهي مقررة لمضمون  
ما قبلها ، وفيها تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافر على الحقيقة ،  
لأنه تعالى لا ينصر إلا أوليائه الذين نصره ، وما يكون من غلبة

للكافر أحيانا ، فإنما ذلك استدراج له وإملاء ، وإبتلاء للمؤمن وتمحيص ..

والمراد بالظالمين : الكفار أو المنافقون ، ووضفهم بالظلم ليدل على تجاوزهم وتعديهم على الحق ، وليشعر بأن هذا هو السبب الذى أوجب عليهم بغض الله تعالى ، ومن أبغضهم الله أبغضه أهل السماء ، ووضعت له البغضاء فى الأرض ..

وقد عدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر وهو لفظ الجلال ، إذ الأصل : وهو لا يحب الظالمين ، لتقدم ذكره تعالى ، وفى هذا العدول تربية للمهابة - كما ذكرنا - وتأكيد لبغضه الظالمين ، كما يدل على ذلك أيضا تقديم المسند إليه « لفظ الجلالة » على خبره المنفى ، فإن هذا التقديم يدل على تأكيد نفي الفعل .

وفى قوله تعالى : « ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » عطف التمهيص وهو التطهير من الذنوب والتخليص من العيوب ، على الاتخاذ ، فهو العلة الثالثة من العلل المذكورة للمداولة ، وقد ذكرت السلام فى هذه العلة ، وكان يمكن الاستغناء عنها كما استغنى عنها فى العلة الثانية ( ويتخذ ) لدلالة اللام فى العلة الأولى ( وليعلم ) على كل منهما ، ولكنها ذكرت هنا على الرغم من الدلالة عليها للاعتناء بشأن هذه العلة ، ولذا أيضا أظهر لفظ الجلالة فى موضع الإضمار ، ولعل الفصل بالجملة الاعترافية بين العلة الثانية والعلة الثالثة هذه ، مما دعا أيضا إلى هذه السلام ، واقتضى ذكرها ..

وتلك العلل الثلاث « ليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء .. » ولیمحص الله الذين آمنوا « علل للمداولة باعتبار كونها على المؤمنين ، والعلة الرابعة ( ويمحق الكافرين ) خاصة بالكفار

كما هو واضح ، ولعل تأخير العلة الثالثة عن الاعتراض لئلا يتوهم اندراج المذنبين فى الظالمين ، إذ التمهيص تطهير من الذنوب ، وتصفية من السيئات . .

وأيضاً لى تقترن هذه العلة الثالثة ( وليمحص الله الذين آمنوا ) بالعلة الرابعة الخاصة بالكفار ( ويمحق الكافرين ) لما بينهما من المناسبة ، ففى كل من التمهيص والمحق إزالة ، إلا أن التمهيص إزالة للذنوب والسيئات والعيوب ، يقال : محصت الذهب إذا أزلت خبثه ، وأما المحق فهو إزالة العين ، وإهلاك النفس ، وأصله التنقيص شيئاً فشيئاً ، ومنه المحاق ، والمعنى : ويهلك الكافرين فلا يبقى منهم أحداً \* . .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين • ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » •

استئناف لبيان الغاية القصوى من مداولة الأيام ، وهى فوز المجاهدين الصابرين فى الجهاد لإعلاء كلمة الله بدخول الجنة ، فأم منقطعة بمعنى بل والهمزة ، أفادت الإضراب عن التسلية ببيان العلل فيما أصابهم ولاقوه من شدة ، إلى تحقيق الغاية منها ، وهى الفوز بالمطلب الأسنى والمقام الأعلى .

والاستفهام بأم استفهام إنكارى ، إذ المقصود إنكار أن يقع منهم ذلك الحسبان ، والمعنى : بل لا ينبغى منكم أن تظنوا أنكم تدخلون الجنة ، وتفوزون بما أعد الله فيها من نعيم ، دون أن

---

\* المحاق بفتح الميم وكسرها وضمها : استتار القمر آخر الشهر ، لأنه يطلع قبل طلوع الشمس فلا يرى •

يقع ابتلاء منا لكم وتمحيص ، لنعلم المؤمنين المجاهدين ، الصابرين  
على الجهاد لإعلاء كلمة الحق ...

ونفى العلم فى قوله تعالى : ( ولما يعلم الله ) إما باعتبار  
تعلقه التنجيزى كما مر فى قوله عز وجل ( وليعلم الله الذين  
آمنوا ) والمعنى : لما يعلمهم علما يتعلق به الجزاء ، فيترتب عليه  
جزاؤهم ..

وإما على سبيل الكناية حيث أطلق علم الله وأريد به المعلوم  
وهو الجهاد ، والمعنى : ولما تجاهدوا ، لأن علم الله تعالى متعلق  
بالمعلوم ، فنزل نفى العلم منزلة نفى متعلقه ، لأنه منتف بانتهائه ،  
والتعبير عن نفى المعلوم بنفى العلم خاص بعلم الله تعالى ، لأنه  
يلزم من عدم تعلق علمه تعالى بوجود شيء ما عدم ذلك الشيء ،  
ضرورة أنه لا يعزب عن علمه شيء لعموم تعلقه ، يقال ما علم  
الله فى فلان خيرا ، والمراد : ليس فيه خير حتى يعلمه الله تبارك  
وتعالى ..

وإيثار الكناية على التصريح للمبالغة فى تحقيق المعنى المراد ،  
وهو عدم تحقق الجهاد ، الذى هو سبب الفوز بالجنة ، والنعيم  
العظيم الذى أعد بها للمجاهدين الصابرين ، لأن الكناية بمثابة  
دعوى الشيء ببيينة ، وهذا يشعر بضرورة الإخلاص فى العمل ،  
والتخلّى عن الرياء ، لأن المقصود أن يعلم الله تعالى ، لا علم الناس ..

وفى توجيه النفى إلى الموصوفين فى قوله تعالى : ( ولما  
يعلم الله الذين جاهدوا منكم ) دون أن يقال : ولما يعلم الجهاد  
واقعا منكم ، إذ المقصود نفى الوصف وهو الجهاد ، لأن فى ذلك  
مزيدا من المبالغة فى انتفاء الوصف ، وعدم تحققه أصلا ، إذ نفى  
الموصوف يستلزم انتفاء صفته ،

وعبر بلما دون لم التى بمعناها ، لأن فى ( لما ) ضربا من توقع الفعل المنفى بها ، وهذا يدل على نفى الجهاد فى الماضى ، وعلى توقعه فى المستقبل ، تقول : وعدنى فلان ولما يف ، تريد أن الوفاء لم يقع فى الماضى ، ويتوقع وقوعه فى المستقبل . .

والواو فى قوله تعالى : ( ويعلم الصابرين ) واو المعية والمضارع منصوب بعدها بأن مضمرة ، وفى هذه الواو معنى الجمع ، كقولك : لا تأكل السمك وتشرب اللبن ، والمعنى : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر ، أى : الجمع بينهما ، وقرئ برفع ( يعلم ) على أن الواو واو الحال ، والمعنى : ولما تجاهدوا وأنتم صابرون . .

وأوثر التعبير بالصابرين فلم يقل : ويعلم الذين صبروا ، على غرار قوله تعالى : ( ولما يعلم الله الذين جاهدوا ) للدلالة على أن المعتبر هو الاستمرار على الصبر والمداومة عليه والثبات ، وهذا لا يتأتى عند التعبير بالموصول وصلته ، إذ ليس فى الفعل معنى الثبات والاستمرار ، وأما الجهاد فليس ذلك معتبرا فيه ، لأنه يتجدد حيناً بعد حين ، وتأتى الغزوة بعد الغزوة ، فناسب ذلك أن يعبر عنه بالموصول وصلته « الذين جاهدوا » .

وقوله تعالى : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنتظرون » عتاب للمنهمزمين الذين كانوا يتمنون أن يحضروا مشهدا مع رسول الله - ﷺ - ليصيبوا من كرامة الشهادة مانال شهداء بدر ، عتاب لهم على تمنيههم الشهادة وهم لم يثبتوا حتى يستشهدوا ، أو على تمنيههم الحرب وتسببهم لها ثم جنبهم وانهمزاهم وليس العتاب على تمنى الشهادة فى حد ذاتها ، لأن ذلك مما لا يعاتب عليه كما لا يخفى . .

ومعنى تمنى الموت : تمنى الشهادة ونيل الكرامة ، ولا يقال : كيف تتمنى الشهادة وفى تمنيتها غلبة الكافر المسلم ، لأن قصد المتمنى الوصول إلى نيل كرامة الشهداء فحسب ، ولا يذهب وهمه إلى ذلك المتضمن ، كما أن من يشرب دواء الطبيب النصرانى إنما يقصد الشفاء دون نفعه وترويج صناعته ، وقد وقع هذا التمنى من عبد الله بن رواحة ، وهو من كبار الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وذلك حيث يقول :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة

وضربة ذات فرغ تقذف الزيدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة

بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدتى

أرشدك الله من غاز وقد رشدا (٣٩)

والفاء فى قوله تعالى : ( فقد رأيتموه ) فاء الفصيحة ، أفصحت عن الشرط المحذوف ، والتقدير : إن كنتم صادقين فى تمنىكم الشهادة والموت فى سبيل الله فقد رأيتموه أسبابه ، وشاهدتموها ، وإيثار التعبير بالرؤية على الملاقاة ، فلم يقل : من قبل أن تلقوه فقد لقيتموه ، ثم تقييد الرؤية بالحال ( وأنتم تنظرون ) للمبالغة فى توكيد المشاهدة ، كما يقال : رأيت به عيني رأسى ، ورأيت به وليس فى عيني علة ، والمراد : رأيت به رؤية حقيقية ، لا خفاء فيها ولا شبهة ، وأيضا فإن فى التعبير بالرؤية دون الملاقاة ما يشعر

(٣٩) الزيد بفتح الباء والزاي المشددة المراد بها : الدماء أى : تقذف الدماء وتسيلها ، ويجوز أن راد بالموت فى الآية : الحرب فإنها من أسبابه ، وذلك على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته المسببية ، وعندئذ فالتمنى : الحرب لا الموت ..

بأنهزامهم وتوليهم ، ولو صبروا فى القتال وثبتوا ل قيل : فقد لقيتموه ..

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » •

فى هذه الآية الكريمة قصر لرسول الله محمد - ﷺ - على صفة الرسالة لا يتعدها إلى البعد عن الهلاك ، فهو - ﷺ - رسول يخلو كما خلت الرسل من قبله ، وليس جامعا بين صفتى الرسالة والتبرى من الهلاك ، فالقصر قصر أفراد ، لأن الصحابة - رضى الله عنهم - لما استعظموا عدم بقاءه ، نزلوا منزلة من يستبعد ذلك ، وينكر خلوه - ﷺ - حتى كأنهم قد اعتقدوا فيه وصفين : الرسالة والبعد عن الهلاك ، فقصر - ﷺ - على الرسالة لا يتجاوزها إلى البعد عن الهلاك ، وذلك قصر أفراد •

وأما قوله تعالى فى شأن المسيح عيسى بن مريم : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » (٤٠) فإنه قصر قلب ، لأن النصارى اعتقدوا أن الله ثالث ثلاثة ، اعتقدوا أن عيسى - عليه السلام - إلهها ، فقلب ذلك الاعتقاد ، وقصر على كونه رسولا يخلو كما خلت الرسل من قبله ، لا يتجاوز ذلك إلى كونه إلهها ..

وقد أوتر طريق النفى والاستثناء ، فى الدلالة على القصر ، دون (إنما) مع أن الصحابة لا ينكرون كونه - ﷺ - مقصورا على الرسالة لا يتعدها إلى البقاء ، وذلك لأنهم لما كانوا متعلقين به - ﷺ - ويستعظمون موته ، ويعدون أمره خطيرا وحدثا جليلا ، نزلوا

لذلك منزلة من ينكر موته ، ويعتقد أنه يجمع بين صفتى الرسالة والبقاء ، والسر البلاغى وراء هذا العدول هو تصوير حال الصحابة رضى الله عنهم ، والإشعار بعظم ذلك الأمر فى نفوسهم ، وشدة حرصهم على بقائه - ﷺ - كما لا يخلو الأمر من عتاب عنيف لهم ، لعدم مضيهم على وفق ما يعلمون ، وما هو راسخ فى نفوسهم ..

والاستفهام فى قوله تعالى : « أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » استفهام إنكارى ، والفاء عاطفة للجمله الشرطية على الجملة قبلها ، على معنى التسبب ، ودخول الهمزة على الفاء يدل على إنكار معنى حرف العطف ، أى : إنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سببا لانقلابهم على أعقابهم بعد خلوه - ﷺ - بموت أو قتل ، مع علمهم أن خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به ، يجب أن يجعل سببا للتمسك بالدين لا للانقلاب عنه ..

ولم يكن ثمة انقلاب ولا ارتداد حقيقية ، وإنما هو تغليظ عليهم لما كان منهم من الفرار يوم أحد ، والانكشاف عن رسول الله - ﷺ - فالإنكار فى الآية بمعنى أنه لم يكن ذلك ، ولا ينبغى أن يكون ، وليس إنكارا لانقلاب أو ارتداد وقع منهم ..

والتعبير بأداة الشرط ( إن ) فى قوله تعالى : « أفإن مات .. » لتنزيل المخاطبين لشدة تعلقهم به - ﷺ - منزلة من يستبعد موته ، ويتردد فى وقوعه ، استعظاما له ..

وقوله تعالى : « انقلبتم على أعقابكم » الانقلاب على الأعقاب فى الأصل : الرجوع القهقرى ، فهو استعارة تمثيلية للارتداد والرجوع إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام ، والمعنى على الإنكار - كما أوضحنا - لا على أن هذا قد وقع منهم ..

وفى وضع الاسم الظاهر موضع الضمير فى قوله تعالى :  
« وسيجزى الله الشاكرين » إشعار بمزيد الاعتناء بشأن جزائهم ،  
حيث أسند إلى صريح لفظ الجلالة للدلالة على عظمه وفخامته ..

كما أطلق لفظ ( الشاكرين ) على الثابتين ، الذين لم يفروا  
ولم يتخلوا عن رسول الله - ﷺ - يوم أحد ، وسماهم عز وجل  
شاكرين ، لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا ، وكان  
ثباتهم ناشئاً عن يقين ، وإيمان راسخ ، وفيه إيماء إلى ضعف  
إيمان من فر وتولى عن رسول الله - ﷺ - حيث لم يشكر نعمة  
الإسلام فيما صنع من التولى والفرار ، فاتصال قوله تعالى :  
( وسيجزى الله الشاكرين ) بقوله عز وجل قبله : ( ومن ينقلب  
على عقبه فلن يضر الله شيئاً ) اتصال الوعد بالوعيد ..

ولا يخفى عليك أن تنكير ( شيئاً ) للدلالة على التقليل  
والتحقير ، وأن توجه النفي إلى المفعول فى قوله تعالى : ( فلن  
يضر الله ) يفيد أنه يضر غير الله تعالى ، وليس هذا الغير إلا  
نفس المنقلب على عقبه ، فهو إنما يضر نفسه بتعريضها لسخط  
الله وعذابه ، وحرمانها من الثواب والجزاء العظيم الذى أعده  
الله للشاكرين ..

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد  
ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي  
الشاكرين .. »

فى هذه الآية الكريمة قصر حصول الموت ووقوعه بالأنفس  
على كونه بإذن الله تعالى ومشئته ، لا يتعدى هذه المشيئة ،  
والمعنى : ما كان الموت حاصلًا لنفس من النفوس مطلقاً بسبب  
من الأسباب إلا بمشيئة الله تعالى وإذنه ، ووراء دلالة القصر  
معنيان :

أحدهما : الحث على الجهاد لإعلاء كلمة الله ، والإشعار بأن الحذر لا ينفع ، وأن أحدا لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك ..

الثانى : حفظ الله تعالى نبيه - ﷺ - عند غلبة العدو ، فى يوم أحد ، والتفافهم عليه عندما تولى عنه من تولى من المسلمين ، وفى ذلك تسلية للمؤمنين ، لما أصابهم من الخوف على رسول الله - ﷺ - عندما التف عليه الأعداء ..

وقد أكد القصر بقوله تعالى : « كتابا مؤجلا » لأن ( كتابا ) مصدر مؤكد لعامله المستفاد من الجملة السابقة - جملة القصر - والمعنى : كتب ذلك الموت المأذون فيه كتابا مؤجلا ، أى : موقتا بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (٤١) .

وقوله تعالى : « ومن يرد ثواب الدنيا نُؤته منها » تعريض بالذين شغلتهم الغنائم يوم أحد عن رسول الله - ﷺ - فخالفوا أمره ، وتركوا مكانهم ، وانشغلوا بالغنائم ..

وقد التفت من الغيبة فى قوله تعالى : ( إلا بإذن الله ) إلى التكلم فى قوله عز وجل : ( نُؤته منها ) وفى هذا الالتفات وعيد لمن يركنون إلى الدنيا ويغترون بزخرفها ومتاعها القليل ، فهو التفات الغاضب المتوعد ، قال تعالى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا » (٤٢) .

وكما عرض بالذين شغلتهم للغنائم فنسوا أمر رسول الله

(٤١) الأعراف : ٣٤ .

(٤٢) الإسراء : ١٨ .

- ﷺ - امتدح الذين ثبتوا يومئذ يدافعون معه وعنه - ﷺ -  
فقال عز وجل : ( ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ) وقد  
أبهم الثواب الذى أعده لأولئك المؤمنين تعظيما له ، فقال تبارك  
وتعالى : ( وسنجزى الشاكرين ) فهذه جملة تذييلية مقررة لمضمون  
ما قبلها ووعد بالمزيد عليه ، وفى تصديرها بالسين وإبهام الجزاء  
دلالة على فخامة شأن ذلك الجزاء ، المعد لهؤلاء الشاكرين ،  
وكونه بحيث لا يحيط به الوصف ، ويضيق عنه نطاق البيان ،  
قال عز وجل : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن  
فأولئك كان سعيهم مشكورا » (٤٣) ومن شكر الله سعيه فقد أعد له جزاء  
عظيما ، لا يمكن إدراكه ، ولا يتأتى بيانه .

ولا يخفى عليك أن ( الدنيا ) و ( الآخرة ) صفتان قد  
حذف موصوفهما ، والتقدير : ومن يرد ثواب الحياة الدنيا ..  
ومن يرد ثواب الحياة الآخرة .. وقد كثر هذا الحذف ، حتى  
صارت الصفتان من الصفات الغالبة ..

كما لا يخفى عليك أيضا حذف المضاف فى قوله تعالى :  
( نؤته منها ) فى الموضعين ، إذ المراد : نؤته شيئا من ثواب  
الدنيا إن شئنا ... ونؤته من ثواب الآخرة ما نشاء حسبما جرى  
به قلم الوعد الكريم ...

اللهم اجعلنا من الصابرين الشاكرين ، الذين يريدون ثواب  
الآخرة ، ويزهدون فى الدنيا ، فلا يركنون إليها ، ولا يغترون  
بمتاعها وزخرفها ، « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن  
اتقى ولا تظلمون فتيلا » (٤٤) .

(٤٣) الإسراء : ١٩ .

(٤٤) النساء : ٧٧ .

( ٣ )

قال تعالى : « ألم • تلك آيات الكتاب الحكيم • هدى ورحمة  
للمحسنين • الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم  
يوقنون • أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون • ومن  
الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها  
هزوا أولئك لهم عذاب مهين • وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا  
كان لم يسمعها كان فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم • إن الذين  
آمَنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم • خالدون فيها وعد الله  
حقا وهو العزيز الحكيم • خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى  
الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء  
ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم • هذا خلق الله فأرونى ماذا  
خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين » لقمان ١ - ١١ •

عند تناولنا للآيات الكريمة من أول سورة البقرة تحدثنا عن  
فواتح السور ، فذكرنا عدد حروف الهجاء التى وردت فى هذه الفواتح ،  
فهى نصف حروف الهجاء ، وقد اشتملت على جميع أجناسها ، ففيها  
النصف من كل جنس ، والحروف التى وردت بالفواتح هى التى كثر  
استعمالها فى نظم القرآن الكريم ، عن استعمال غيرها التى لم ترد ••

كما أشرنا إلى طريقة النطق بهذه الفواتح ، وجلينا ما قاله العلماء  
فى تعليل افتتاح السور بها ، فقد قالوا : إنها للإيقاظ والتبكيك  
وإلزام الحجة ولفت الأنظار والتنبيه على الإعجاز ، ولم يقطعوا  
بقول فيها وإنما جعلوها سرامن أسرار القرآن ، حيث قالوا :  
لكل كتاب سر ، وسر القرآن فواتحه (١) •

فقوله تعالى : ( ألم ) جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم

مستقلة بنفسها ، نبهت إلى أنه الكلام المتحدى به ، ثم جاء قوله عز وجل : ( تلك آيات الكتاب الحكيم ) مقرررا لهذه الجملة ومبيننا لجهة التحدى ، ففصل بينهما لكمال الاتصال .

واسم الإشارة ( تلك ) مشار به إلى آيات السورة الكريمة ، وقد عبر به وهو موضوع للبعيد للدلالة على تعظيم الآيات الكريمة وبعد مكانتها ، تنزيلا للبعد المعنوى منزلة البعد الحسمى .

واضافة الآيات الى الكتاب الحكيم فى قوله تعالى : ( آيات الكتاب الحكيم ) يدل على التعظيم والتفخيم ، لأن المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه ، يقال : عبد الله ، وخادم الأمير ، فتعظم هاتان الكلمتان : عبد وخادم ، بأضافة الأولى إلى لفظ الجلالة ، وإضافة الثانية إلى الأمير ، وكانتا قبل الإضافة تخلوان من هذا المعنى ، بل كان فيهما معنى الذل والهوان والتحقير . .

ونجد أن كلمة ( عبد ) قد سمت وعظمت فى آيات الذكر الحكيم بإضافتها إلى أسماء الله تبارك وتعالى ، ولنقرأ الآيات الكريمة : « قال إني عبد الله . . . وأنه لما قام عبد الله يدعوه . . . وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا . . . » ( ٢ ) .

ولله در القائل :

ومما زادنى شرفا وتيها وكدت بأخمصى أطأ الثريا  
دخولى تحت قولك : يا عباد وأن جعلت أحمدا لى نبيا

وفى قوله تعالى : ( الكتاب الحكيم ) مجاز عقلى ، لأن الحكمة فى الحقيقة ليست وصفا للكتاب ، وإنما هى وصف لقائله عز وجل ، فكما أن إسناد الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه مجاز ، كقولك : سار

الطريق ، وصام النهار ، وكذلك وصف الشيء بغير ما حقه أن يوصف به ، ونحو ذلك قولهم : الأسلوب الحكيم والضلال البعيد ، والرجل العدل ، فالحكمة فى الحقيقة ليست وصفا للأسلوب ، وإنما هى وصف لصاحبه ، والبعد ليس وصفا للضلال بل هو وصف للضال ، والعدل ليس وصفا للرجل ، بل وصف لأقواله وأفعاله ، فالأصل أن يقال : رجل ذو عدل ، كما يقال : رجل ذو رأى ..

وتنكير ( هدى ورحمة ) للتعظيم ، والدلالة على كمال الهداية والرحمة ، أما كونه رحمة للمحسنين ، فهذا جلى لا يحتاج إلى بيان ، قال تعالى : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » (٣) وأما كونه هدى لهم والمحسنون مهتدون ، فالمعنى : أن فيه زيادة هدى لهم ، واستدامة عليه ، كما يقال للغنى : أغناك الله ، وللعزيز : أعزك الله ، وللكريم : أكرمك الله ، والمعنى : زادك الله غنى وعزة وكرامة ، وأدام ذلك لك ، فالمراد طلب الزيادة والدوام لما هو ثابت فى الغنى والعزیز والكريم ..

وفصل قوله تعالى : « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » عما قبله للاستئناف البيانى ، حيث تضمنت الآيات السابقة سؤالاً ، ووقعت هذه الآية جواباً له ، وكان سائلاً سأل : من هم هؤلاء الذين جعل القرآن لهم هدى ورحمة ؟ فجاء الجواب : هم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ..

وقد حذف المسند إليه ( هم ) فى صدر الاستئناف ، كما حذف فى قوله تعالى : « يسبح له فيها بالغدو والآصال » رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ... » (٤) ، إذ التقدير : المسبح رجال ، أو يسبحه رجال ، فحذف المسند إليه أو المسند فى صدر الاستئناف ،

(٣) الإسراء : ٨٢ .

(٤) النور : ٣٦ ، ٣٧ .

وهذا على قراءة من قرأ ببناء الفعل ( يسبح ) للمفعول ، وأما على قراءة من قرأ ببنائه للفاعل فإن ( رجال ) فاعل ( يسبح ) ولا حذف عندئذ ، بل هى جملة واحدة مكونة من الفعل والفاعل : يسبح له رجال ، كما هو واضح ..

والسر البلاغى وراء الحذف فى الآية الكريمة أن يتصل الموصول وصلته ( الذين يقيمون ) بالمحسنين فى اللفظ ، ، فهذا الاتصال اللفظى يبرز المحسنين ويصورهم ممثلين قائمين بهذه الأعمال التى استحقوا بها الفلاح والفوز ( ٥ ) ..

وفى مجيء صلة الموصول أفعالا مضارعة ( يقيمون .. يؤتون .. يوقنون ) دلالة على تجدد تلك الأعمال والأفعال من المحسنين ، واستمرارهم على تحقيقها ، وذلك لأن الفعل المضارع يدل على التجدد والاستمرار ..

واقصر على ذكر إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والإيقان بالآخرة لعظم هذه الأمور ، وأهميتها ، وفضل الاعتداد بها ، فجعلت لذلك بمنزلة الجميع ، ومن أتى بها كان آتيا بغيرها ، وكما قالوا :  
( كل الصيد فى جوف الفرا )\*

وقد قدم المسند إليه فى قوله تعالى : ( وهم بالآخرة هم يوقنون ) على خبره الفعلى ، كما قدم الجار والمجرور ( بالآخرة ) وأعيد الضمير ( هم ) للتأكيد وتقوية الحكم ، لأن الإيقان بالآخرة من الأمور الغيبية التى يحتاج إثباتها إلى توكيد وتحقيق ، وأما الصلاة والزكاة ، فليس الأمر فيهما كذلك ...

---

( ٥ ) هذا ولك أن تجعل الموصول ( الذين يقيمون ) صفة كاشفة للمحسنين أو بدلا منه أو عطف بيان ، ولك أن تجعله منصوبا بفعل محذوف على القطع ، والأولى أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف ، كما أوضحنا

وقد تقدم عند حديثنا عن قوله تعالى : ( وبالآخرة هم يوقنون )  
فى سورة البقرة أن تقديم الجار والمجرور ( بالآخرة ) أفاد  
الاختصاص ، فأيقانهم مقصور على حقيقة الآخرة ، لا يتعداها إلى  
خلاف حقيقتها ، وهو ما عليه أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا ، كما  
أفاد تقديم المسند إليه ( هم ) على خبره الفعلى ( يوقنون ) أن  
اختصاص الإيقان بالآخرة مقصور عليهم لا يتجاوزهم إلى الذين  
لم يؤمنوا من أهل الكتاب ..

أما التقديم هنا فلم يفد اختصاصا ، وإنما أفاد المبالغة فى التوكيد  
وتقوية الحكم - كما ذكرنا - ويرجع ذلك إلى ما اقتضاه السياق فى  
سورة البقرة من تعريض بأهل الكتاب وإبطال اعتقادهم وزعمهم فى  
الإيقان بالآخرة حيث قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات . ، وقالوا  
لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، ولم يقتض السياق هنا  
ذلك التعريض ، وبذا يتضح لنا أن دلالة التقديم على الاختصاص  
خاضعة لما يقتضيه السياق وقرائن الأحوال فيه ..

وفى قوله تعالى : ( يقيمون ) مجاز ، إما مجاز مرسل ،  
وإما استعارة تبعية ، وقد سبق إيضاح ذلك عند حديثنا عن آيات سورة  
البقرة ، كما أوضحنا هناك معنى الصلاة ، والمراد منها ، فعد  
إليه وتأمله (٦) ..

( أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون )

عبر باسم الإشارة الموضوع للبعيد ( أولئك ) للدلالة على التعظيم  
وعلو المكانة ، حيث نزل البعد المعنوى منزلة البعد الحسى ، وقد فصلت  
هذه الآية عما قبلها للاستئناف البيانى ، حيث وقعت جوابا لسؤال

قد انبعث من الآيات قبلها ، وكان سائلا سأل : ما جزاء هؤلاء  
المحسنين ، الذين جعل القرآن لهم هدى ورحمة ، واتصفوا بتلك  
الصفات ؟ فجاء الجواب : ( أولئك على هدى من ربهم ٠٠٠ ) •

وفضلا عما يفيد اسم الإشارة ( أولئك ) من الدلالة على التعظيم  
وبعد المكانة ، فإنه يدل على أن المشار إليهم جديرون من أجل صفاتهم  
المتقدمة باكتساب الجزاء الوارد عقب اسم الإشارة ، حيث صاروا  
أهلا له بما تقدم لهم من صفات ، وهذا شأن اسم الإشارة عندما يرد  
بعد صفات المشار إليه المتعددة ، ثم يجيء الجزاء عقبه فيسند إليه ،  
وقد أوضحنا ذلك فيما سبق (٧) ٠٠٠

وفى قوله تعالى : ( أولئك على هدى ) استعارة تبعية فى  
الحرف ( على ) حيث شبه تمسك المحسنين بالهدى وتمكنهم منه ،  
باستعلاء الراكب<sup>\*</sup> ما يركبه بجامع التمكن والاستقرار ، ثم استعير للمشبه  
الحرف الموضوع للاستعلاء ( على ) وفى إيثار التعبير بالحرف (على)  
دلالة على التعظيم والتكريم ، والرفعة والسمو ، وذلك لأنه موضوع  
للدلالة على الاستعلاء ••

ولذا وجدناه فى القرآن الكريم مع الهدى ، يصور ويبرز مكانة  
المهتدين وبعد منزلتهم ، ووجدنا مع الضلال والكفر ، والطغيان والغي ،  
الحرف ( فى ) حيث يصور انغماس الكفار والضالين فى كفرهم  
وضلالهم ، ويبرز هبوطهم وسقوطهم فى مهاوى الضلال والغي والعناد ،  
ولننظر فى الآيات الكريمة : « وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم  
••• ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ••• رأيت إن كان على الهدى •  
أو أمر بالتقوى •• وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ••• قال الملائكة  
من قومهم إنا لنراك فى ضلال مبين ••• الله يستهزئ بهم ويمدهم

فى طغيانهم يعهون ٠٠٠ وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون ٠٠  
وإننا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ٠٠٠» (٨) ، نجد أن  
التعبير بالحرف ( على ) قد أفاد التمكن من الهدى تمكن استعلاء  
وسمو وبعد مكانة ، وأن التعبير بالحرف ( فى ) قد أفاد التمكن من  
الضلال والطغيان والغى تمكن انحطاط وسقوط ، وهبوط إلى الهاوى ،  
تحقيرا للكفرة والضالين وحطا من شأنهم ٠٠

وتتكير ( هدى ) يدل على التعظيم ، وأنه نوع مبهم من الهدى ،  
لا يعرف ولا يدرك كنهه ، ولا يحاط به ، ولذا وصف بالجار والمجرور  
( من ربهم ) مبالغة فى التعظيم والتفخيم والإبهام ٠٠

وقد وصل بين جملتى ( أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم  
المفلحون ) للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، ووجود المناسبة ،  
وأما قوله تعالى : « أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم  
الغافلون » (٩) ، فقد فصل بينهما لوجود المانع الذى يمنع الوصل ،  
إذ الجملة الثانية مقررة لما فى الأولى ، ومؤكدة لمعناها ، فبينهما  
من التداخل والتشابك والاتصال الداخلى ما يمنع الوصل بالواو ،  
ولذا فصل بينهما لكمال الاتصال ٠٠

وقد قصر الفلاح على اسم الإشارة ( أولئك ) المشار به إلى  
المحسنين قصرا حقيقيا ، وطريق القصر تعريف الخبر بال التى للجنس  
فالفلاح مقصور على المحسنين لا يتعداهم إلى غيرهم قصر صفة على  
موصوف ، و ( هم ) ضمير فصل مؤكد للاختصاص .

---

(٨) الآيات بالترتيب : الحج : ٦٧ ، الأنعام : ٣٥ ، العلق : ١١ ،  
آل عمران : ١٦٤ ، الأعراف : ٦٠ ، البقرة : ١٥ ، الأعراف :  
٢٠٢ ، سبأ : ٢٤ ،  
(٩) الأعراف : ١٧٩ ،

وتكرار اسم الإشارة ( أولئك ) يدل على اختصاصهم بكل صفة من الصفتين ( الهدى ) و ( الفلاح ) على حدة ، ويشعر بكمالهما في المحسنين ، وأن الصفة الواحدة منهما لو انفردت لكفت مميزة لهم ، وأغنت عن الأخرى . .

( ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ) .

الواو فى قوله تعالى : ( ومن الناس ) واو القصة ، وهى التى تعطف عدة جمل مسوقة لغرض على عدة جمل مسوقة لغرض آخر ، ويشترط. فيها المناسبة بين غرضى الكلام ، لا بين جمل القصتين ، فهى عاطفة لقصة هذا الكافر الذى يشتري لهو الحديث ، على قصة أولئك المحسنين الذين ازدادوا هدى ، واختصوا بالفلاح . . .

وقد نزلت هذه الآية فى النضر بن الحارث « وكان يتجر إلى فارس ، فيشتري كتب الأعاجم ، فيحدث بها قريشا ويقول : إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة ، فيستمحون حديثه ويتركون استماع القرآن . . وقيل : كان يشتري المغنيات ، فلا يظفر بأحد يريد الإسلام ، إلا انطلق به إلى قينته فيقول : أطعميه وأسقيه وغنيه ، ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والإسلام ، وأن تقاتل بين يديه » (١٠) .

وعندما نتأمل آيات الذكر الحكيم ، وكذا أحاديث النبى - ﷺ - لا نجد إفصاحا وتحديدا لهؤلاء المعاندين ، بل نجد تعميما ، ولنقرأ :  
« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على

ما فى قلبه وهو ألد الخصام ٠٠٠ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ٠٠٠ ومن الناس من يعبد الله على حرف ٠٠٠» (١١) ، ونجد فى الحديث كثيرا ، نحو قوله - ﷺ - : ما بال أقوام يفعلون كذا ٠٠٠ ولعل سبب ذلك يرجع إلى ترغيب هؤلاء فى الإسلام ، واستمالتهم إليه ، لأن فى تخصيصهم ومواجهتهم بما يصنعون ، تنفيرا لهم ، فيزدادون بعدا عن الحق والخير ٠٠

والمراد بالشراء فى قوله تعالى : ( يشتري لهو الحديث ) إما حقيقته على ما روى من شراء النضر كتب الأعاجم أو القينات ، أو شراء غيره مثل هذه الأشياء ، وإما أنه استعارة تبعية فى الفعل ( يشتري ) حيث استعير الشراء للاستبدال والاختيار ، ثم اشتق منه ( يشتري ) بمعنى يستبدل ، كما فى قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » (١٢) ، وقوله عز وجل : « إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرروا الله شيئا » (١٣) ، والمعنى عليه : ومن الناس من يختارون حديث الباطل ويستحبونه ويستبدلونه بحديث الحق ٠٠

والإضافة فى قوله تعالى : ( لهو الحديث ) بيانية بمعنى ( من ) لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره ، فبين بإضافته إلى الحديث ، ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى ( من ) التبعية ، كأنه قيل : ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذى هو اللهو منه ، وعلى كل فإن الغرض من الإضافة تحقير المضاف إليه ، فهو حديث لهو وباطل ، وليس حديث حق وخير ٠٠

وفى قوله تعالى : ( ليضل عن سبيل الله ) حذف مفعول ( يضل )

---

(١١) الآيات بالترتيب : البقرة : ٨، ٢٠٤ ، والحج : ١١ .

(١٢) البقرة : ١٦ .

(١٣) آل عمران : ١٧٧ .

وتقديره : ليضل الناس ، وهذا الحذف يشعر بأن المضل يبذل قصارى جهده فى الإضلال ، فهو لا يدع احدا يظفر به إلا تفنن فى صده وإضلاله عن سبيل الله تعالى ..

وَقَرَىء ( ليضل ) بفتح الياء مضارع ( ضل ) اللازم ، والمعنى : ليثبت على ضلاله ، ويزداد ضلالا على ضلال ، أو على وضع ( يضل ) بفتح الياء ، موضع ( يضل ) بالضم ، من جهة أن من أضل غيره يكون ضالا لا محالة ، فدل بالرديف وهو الضلال على المردوف وهو الإضلال ، ووجه الدلالة أن المراد بالضلال : الضلال المضاعف فى شأن من جانب سبيل الله تعالى وتركه رأسا ، وهذا الضلال لا ينفك عن الإضلال ، وكذلك العكس ..

والجار والمجرور فى قوله تعالى : ( بغير علم ) يتعلق إما بقوله تعالى : ( يشتري ) والمعنى : يشتري لهو الحديث حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه ، أو غير عالم بالتجارة وغير بصير بها ، حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق ، على حد قوله تعالى : « فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » (١٤) أى : وما كانوا مهتدين للتجارة ، بصراء بها ..

وإما متعلق بقوله تعالى : ( ليضل ) ، والمعنى : ليضل عن سبيل الله تعالى جاهلا أنها سبيل الله ، أو جاهلا أنه يضل عنها ، أو جاهلا الحق ..

وفى إيثار التعبير بالفعل المضارع ( يشتري ... ليضل ... ويتخذها .. ) ما يدل على مواصلة العناد والاستكبار ، والصد عن سبيل الله ، حيث يدل المضارع على التجدد والاستمرار ..

هذا وعند التأمل فى نظم الآية الكريمة يتضح لنا أنه قد بولغ فى تصوير عناد من يشتري إبهو الحديث ، واستكباره ، وإعراضه عن الحق ، من جهات عدة :

١ - أن الذى يشتريه إنما هو اللهو من الحديث ، فقد ترك جانب الخير والحق ، وأقبل على شراء اللهو والباطل منه .

٢ - الغاية من الشراء هى الضلال والإضلال وصد الناس عن القرآن ودين الإسلام ..

٣ - جهله بهذا الذى يصنعه ( بغير علم ) فقد أصم أذنيه ، وأبى سماع الحق والانصياع له ..

٤ - اتخاذه سبيل الله وهى الإسلام والقرآن هزوا ، فهو يهزأ بها ، ويسخر منها ، ويبغيها عرجا ، وقد وقف نفسه لهذا ، واتخذه طريقا لا يحدد عنه ..

ولذا كان جزاؤهم الإبعاد عن رحمة الله ، واستحقاق العذاب المهين ( أولئك لهم عذاب مهين ) ، فالتعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد ( أولئك ) يدل على بعد المنزلة فى الشر والانحطاط والطرده من رحمة الله ، تنزيلا للبعد المعنوى فى التحقير والذم منزلة البعد الحسى ..

كما يدل اسم الإشارة ( أولئك ) على أن المشار إليه قد استحق الجزاء المذكور بعد ، وهو العذاب المهين من أجل تلك الصفات المتقدمة ، الشراء ، والإضلال عن سبيل الله ، واتخاذها هزوا ..

ولا يخفى عليك أن الجمع فى اسم الإشارة والضمير ( أولئك لهم ) باعتبار معنى ( من ) والإفراد فى قوله تعالى : ( يشتري .. ليضل .. ويتخذها .. تتلى .. ولى .. يسمعها .. أذنيه .. فبشره ) باعتبار لفظها ..

وفى تقديم الجار والمجرور فى قوله تعالى : ( لهم عذاب مبين )  
ضرب من التوكيد ، والمبالغة فى استحقاقهم العذاب ، وقد نكر  
( عذاب ) للدلالة على التعظيم والتهويل ، كما يدل على ذلك أيضا  
وصفه بقوله تعالى ( مهين ) أى : لهم عذاب عظيم هائل بسبب استكبارهم  
وصدهم عن سبيل الله ..

( وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى  
أذنيه وقرا فبشره بعذاب اليم ) .

عطف هذه الآية على قوله تعالى ( يشتري لهو الحديث ) ،  
والمعنى : ومن الناس من يشتري لهو الحديث ويولى مستكبرا إذا تليت  
عليه آياتنا ..

وعبر بإذا للدلالة على تحقق وقوع الشرط ، فإن تلاوة الآيات  
عليه قد تحققت ، ومع ذلك لم يسمع ، وولى مستكبرا ، وهذا يشعر  
بشدة العناد والإصرار على التولى والإعراض ..

والتعبير بالفعل المضارع ( تتلى ) وبنائه للمفعول ، للدلالة على  
تجدد التلاوة واستمرارها ووقوعها من جهات متعددة ، إذ المضارع  
يدل على التجدد والاستمرار ، وبنائه للمفعول وحذف الفاعل يجعل  
النفس تذهب كل مذهب فى تقدير الفاعل المحذوف ، فهو إما النبى  
- ﷺ - وإما المؤمنون - الصحابة رضى الله عنهم - وهذا يعنى أن التلاوة  
أنتهم من جهات عدة ، وكانت مستمرة متجددة ، فلا عذر عندئذ لمن  
أعرض وتولى مستكبرا ..

كما أن تقييد الفعل ( تتلى ) بالجار والمجرور ( عليه ) وتقديم  
هذا القيد على نائب الفاعل ( آياتنا ) يقطع أى عذر لهم فى الإعراض ،  
فالآيات لم تتل فقط ، وإنما تليت عليه ، وقرعت أذنيه ، ولا سبيل  
أمامه إلا الإذعان والقبول أو العذاب الشديد إن تولى وأعرض ..

وإضافة الآيات إلى ( نا ) العظمة فى قوله تعالى : ( آياتنا )  
للدلالة على التعظيم والتفخيم ، كما أن التعبير عن الإعراض بالفعل  
الماضى ( ولى مستكبرا ) يدل على تحقق وقوعه ، ثم أكد هذا الوقوع  
بالحالين : ( مستكبرا كأن لم يسمعها ) ، فالحال الأولى تدل على المبالغة  
فى التكبر ، لأن الاستفعال بمعنى التفعّل ، والحال الثانية تدل على  
أنه قد أصم أذنيه ، وأبى إلا التولى والإعراض . .

وقد شبهت حال المتكبر فى إعراضه تكبرا وقد سمع الآيات ،  
بحال من لم يسمعها ، وذلك فى قوله تعالى : ( ولى مستكبرا كأن  
لم يسمعها ) ، ويشعر هذا التشبيه بأن من سمع الآيات لا يتصور منه  
التولى والاستكبار ، اللهم إلا إذا أصم أذنيه ، وصارت حاله حال  
من لم يسمع ، وذلك لما فى الآيات من الأمور الموجبة للإقبال  
والخضوع . .

ولذا رأينا المشركين يبالغون فى الإعراض عن القرآن وصد الناس  
عنه ، والامتناع عن سماعه ، حتى لا يأخذهم ما فيه وهم أرباب  
الفصاحة والبيان ، وقد صور القرآن رفضهم سماعه ، ولغوهم عند  
تلاوته حتى لا يسمع الناس ، فقال تعالى : ( فأعرض أكثرهم فهم  
لا يسمعون • وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر  
ومن بيننا وبينك حجاب ••• وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا  
القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » ( ١٥ ) •

وقوله تعالى : ( كان فى أذنيه وقرا ) تشبيه آخر لحال من  
أعرض متكبرا بحال من فى أذنيه صمم مانع له من السماع ، وأصل  
الوقر : الحمل الثقيل ، استعير للصمم ، ثم غلب حتى صار حقيقة

فيه ، و تشديد نون ( كان ) الثانية يناسب ثقل الوقر ، الذى صار حقيقة فى صمم الأذنين ..

ونلاحظ الترقى فى ذم هؤلاء المتكبرين ، حيث شبهوا أولا بحال من لم يسمع الآيات ، ثم شبهوا ثانيا بحال من فقد السمع كلية ، وصار فى أذنيه وقر ، مبالغة فى الذم والتقبيح ..

وقد فصلت الجملة الثانية ( كان فى أذنيه وقرا ) عما قبلها ( كان لم يسمعها ) لكمال الاتصال ، لأن الثانية مقررة ومؤكدة للأولى ، أو منزلة منها منزلة البدل أو عطف البيان ..

والأمر فى قوله تعالى : ( فبشره بعذاب اليم ) للإهانة والتحقير والإذلال ، ومثله قوله تعالى : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » (١٦) وقوله عز وجل : « بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما » (١٧) ، والعذاب الليم ينذر ولا يبشر به ، والحميم والغسلين ورضف جهنم لا يذاق ، وإنما يغص ، ففى ( بشر وذق ) استعارة تهكمية عنادية ، وتنكير ( عذاب ) ووصفه بقوله تعالى : ( أليم ) يدل على التعظيم والتهويل ، أى : فبشره بعذاب عظيم هائل ، لا يدرك كنهه ، ولا يحيط به الوصف لإبهامه وفخامته ..

( إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم . خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم ) .

بيان لحال المؤمنين بآيات الله عقب بيان حال الكافرين بها ، وقد فصل عما قبله للاستئناف البيانى ، وكان سائلا سأل : إن كان هذا حال الكافرين ، الذين استكبروا وأعرضوا عن آيات الله ، فما حال

(١٦) الدخان : ٤٩ .

(١٧) النساء : ١٣٨ .

للمؤمنين بها ؟ وما جزاؤهم عند ربهم ؟ فجاء الجواب : ( إن الذين آمنوا ... ) .

وقد أكد الخبر بأن تحقيقا لوعده الله تعالى ، ولم يلتفت في هذا التأكيد إلى حال من أحوال المخاطب ، لأن حال المخاطب لا يعول عليها دائما في إلقاء الخبر ، بل قد يعول على غيرها ، كما هنا ، فقد أكد الخبر لتحقيق الوعد ، وقد يؤكد لتحقيق الوعيد ، كقوله تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » (١٨) ولغرابة الخبر كقوله تعالى : « فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين » (١٩) إلى غير ذلك من الأمور التي يعول عليها في توكيد الخبر (٢٠) .

وقد جاء المسند إليه اسم موصول ( الذين ) حيث توميء جملة الصلة ( آمنوا وعملوا الصالحات ) إلى وجه بناء الخبر ، فمن قرأ جملة الصلة هذه ، أدرك نوع الخبر ووقف عليه ، وعلم أنه جزاء حسن ، لأن الصلة إيمان وعمل صالح ، والجزاء من جنس العمل .

وحذف الموصوف في قوله تعالى : ( وعملوا الصالحات ) ، إذ التقدير : وعملوا الأعمال الصالحات ، وقد كثر حذف هذا الموصوف حتى صارت الصفة ( الصالحات ) من الصفات الغالبة .

وإضافة الجنات إلى النعيم في قوله تعالى : ( جنات النعيم ) ، باعتبار اشتمالها عليه ، كقولنا : كتب البلاغة وكتب النقد ، وتدل هذه الإضافة على كثرة النعيم وشهرته ، كما تدل بطريق برهاني

(١٨) الأنبياء : ٩٨ .

(١٩) القصص : ٣٠ .

(٢٠) ارجع إلى كتابنا علم المعاني : ٥٠/١ .

على أن للمؤمنين نعيم الجنات ، لأن من ملك الجنات ملك نعيمها ،  
ولذا كانت إضافة الجنات إلى النعيم ( جنات النعيم ) أبلغ من إضافة  
النعيم إليهما في نحو قولنا : نعيم الجنات ، إذ لا يستدعي هذا القول  
أن تكون نفس الجنات ملكا لهم ، فقد يتنعم بالشئ غير مالكة . . .

وقوله تعالى : ( وعد الله حقا ) مصدران مؤكدان ، الأول مؤكد  
لما هو بنفسه ، والثاني مؤكد لغيره ، لأن قوله تعالى : ( لهم جنات  
النعيم ) في معنى : وعدهم الله جنات النعيم ، فأكد معنى الوعد  
بالوعد ، وأما ( حقا ) فدل على معنى الثبات ، وقد أكد به معنى  
الوعد ، ومؤكدهما جميعا واحد ، وهو قوله تعالى : « لهم جنات  
النعيم » ( ٢١ ) . . .

وقد قصرت العزة والحكمة على الله تعالى قصرا حقيقيا تحقيقيا  
في قوله تعالى : ( وهو العزيز الحكيم ) وطريق القصر تعريف المسند  
بال التي للاستغراق ، كما يقال : زيد الشجاع وعمرو الكريم في قصر  
الشجاعة على زيد ، والكرم على عمرو ، مع ملاحظة أن القصر في  
الآية الكريمة قصر حقيقي تحقيقى - كما ذكرنا - وأما في المثالين  
فهو قصر حقيقى ادعائى ، أو قصر إضافى ، حسبما يظهر لنا من  
السياق وأحوال المخاطب فيه . . .

وختام الآية الكريمة بالعزة والحكمة يتناسب ويتلاءم مع ما ذكره  
الله عز وجل في الآيات من وعيد للكفار ، ووعد للمؤمنين ، فمعنى  
( العزيز ) الذى لا يغلبه شئ ولا يعجزه ، فيمنع من إنجاز وعده  
وتحقيق وعيده ، بل يقدر على الشئ وضده ، فيعطى النعيم من شاء  
والبؤس من يشاء ، ومعنى ( الحكيم ) الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه

الحكمة والعدل ، ويعرف هذا التناسب فى البديع بتشابه الأطراف ،  
والجملة - جملة ( وهو العزيز الحكيم ) - تذييل مقرر لما ذكر  
فى الآيات الكريمة من وعد ووعد ..

( خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن  
تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها  
من كل زوج كريم • هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه  
بل الظالمون فى ضلال مبين ) •

لما ختمت الآيات السابقة بقوله تعالى : ( وهو العزيز الحكيم )  
استأنف عز وجل لبيان مظاهر عزته وحكمته ، والاستشهاد بما فصل  
على كمال قدرته وكمال علمه تعالى ، وهو استئناف بيانى حيث  
تتجلى عزة الله تعالى ، وتظهر حكمته التى هى كمال العلم ، فيما ذكر  
مما أبدعه عز وجل ، وخلقه فأحسن خلقه ، وكان سائلا سأل :  
فيم تتجلى عزته تعالى وحكمته ، وما مظاهرها فى الكون ودلائلها ؟  
فيأتى الجواب : تتجلى فى خلق السموات بغير عمد ..

وقد توالى تلك الجمل الخبرية : ( خلق السموات ... وألقى فى  
الأرض ... وبث فيها ... وأنزلنا ) ، ووصل بينها بواو العطف  
تفصيلا لمظاهر القدرة ، وإتقان الصنع ، ومجىء أفعالها أفعالا  
ماضية يدل على تحققها واستقرارها ، ويشعر بظهورها ووضوحها لمن  
أراد أن يتأمل ويتدبر ، وألقى السمع وهو شهيد ..

وقوله تعالى : ( ترونها ) فصل عما قبله للاستئناف البيانى ،  
وكان سائلا سأل : ما الدليل على كون السموات بلا عمد ؟ فأجيب  
( ترونها ) فهو مسوق لإثبات كونها بلا عمد ، إذ لو كانت لها عمد  
لرايناها ، والضمير فى ( ترونها ) على هذا راجع إلى السموات ..

ويصح أن تكون جملة ( ترونها ) صفة لعمد ، والضمير على هذا يكون راجعا إلى ( عمد ) لا إلى السموات ، والمعنى : خلق السموات بغير عمد مرئية لكم ، وهذا يشعر وينبئ بأن الله تعالى عمدها بعمد لا ترى ولا تدرك ، وهى عمد القدرة الإلهية ، فتبارك الله أحسن الخالقين ..

ويشعر حرف الجر ( فى ) فى قوله تعالى : ( وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ) بتغلغل الجبال داخل الأرض ، وتمكن الأرض من الجبال تمكن الظرف من المظروف ، وقوله تعالى : ( أن تميد بكم ) تعليل للإلقاء ، والمعنى : وألقى فى الأرض رواسى شامخات كراهة أن تميد بكم ، أو لئلا تميد بكم ..

والتعبير بالبت فى قوله تعالى : ( وبت فيها من كل دابة ) وما فيه من معنى الإثارة والتفريق والانتشار ، قال تعالى : « وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا » ( ٢٢ ) ، وقال عز وجل : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث » ( ٢٣ ) ، يدل ذلك على مراد الله عز وجل من الخلق ، فإنه الانتشار فى الأرض ، وعمارة الكون بالحركة الدائبة ، وعدم الركون للدعة والتكاسل والتواكل ، وهذا ما نجده فى قوله تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله . . . » ( ٢٤ ) ، وقوله عز وجل :- « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » ( ٢٥ ) .

---

( ٢٢ ) الواقعة : ٥ ، ٦ .

( ٢٣ ) القارعة : ٤ .

( ٢٤ ) الجمعة : ١٠ .

( ٢٥ ) الملك : ١٥ .

وعندما نتأمل نظم الآيتين الكريميتين نجد عدة التفاتات ، وراءها كثير من المعانى والأسرار البلاغية ، فقد التفت من الغيبة فى قوله تعالى : ( خلق السموات ... وألقى فى الأرض ... وبث فيها من كل دابة ) إلى التكلم فى قوله عز وجل : ( وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها ... ) ويشعر هذا الالتفات بمزيد الاعتناء بأمر الإنزال والنبات ، وذلك لتكررها ، وتوقف الحياة وعمارة الأرض على الماء والنبات ، ولذا كان الالتفات ليسند الإنزال والنبات إلى ( نا ) العظمة ( أنزلنا .. فأنبتنا ) .

ثم التفت من التكلم فى قوله تعالى : ( وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا ) إلى الغيبة فى قوله عز وجل : ( هذا خلق الله ) ، وكان الأصل أن يقال : هذا خلقنا ، ونلاحظ ما وراء هذا الالتفات من التصريح باسم الله الأعظم ، وما له من أثر فى تربية المهابة ، والإشعار بكمال القدرة وبديع الصنع ..

والتفت مرة أخرى إلى التكلم فى قوله تعالى : ( فأرونى ) وكان مقتضى الظاهر أن يقال : هذا خلق الله فأروه ، ونشعر بنبرة الوعيد والتحذير ، والتحدى والإعجاز ، وراء هذا الالتفات ، وكأنه التفات الغاضب المتوعد ..

وفى الآيتين التفات آخر من الخطاب فى قوله تعالى : ( ترونها ... أن تميد بكم ... فأرونى .. ) ، إلى الغيبة ووضع الظاهر موضع الضمير فى قوله تعالى : ( بل الظالمون فى ضلال مبين ) ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : بل أنتم فى ضلال مبين ، وترجع بلاغة هذا الالتفات إلى أمرين :

أولهما : أن الخطاب فى الآيتين عام ، وليس فى كل المخاطبين فى ضلال مبين ، بل الظالمون منهم ، فوجب الالتفات ، وحسن ..

ثانيهما : أن فى الالتفات ووضع الظاهر موضع الضمير تسجيلا على الكفار ، ووسمهم بتلك الصفة ، صفة الظلم ، للدلالة على أنهم بكفرهم واضعون للشئ فى غير موضعه ، ومتعدون عن الحد ، وظالمون لأنفسهم ، وهذا ما صيرهم فى ضلال مبين ، وعمما قليل سيجعلهم فى عذاب مهين ..

والتعبير باسم الإشارة ( هذا ) فى قوله تعالى : ( هذا خلق الله ) ، إشارة إلى ما ذكر من أفعال القدرة والإبداع ، فيه تجسيد للمعنويات ، وإبرازها فى صورة مشاهدة محسوسة ..

والأمر فى قوله عز وجل : ( فأرونى ) للتبكيك والإعجاز وإلزام الحجة عليهم ، وحثهم على تأمل ما يعبد من دون الله ، والوقوف على عجز تلك المعبودات ، وضعفها وضعفها ، قال تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » (٢٦) .

والفاء فى قوله تعالى : ( فأرونى ) فاء الفصيحة واقعة فى جواب شرط مقدر ، والمعنى : إذا علمتم ذلك وتدبرتموه ، ووقفتم على شئ من آثارة القدرة الإلهية ، فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، ممن اتخذتموهم شركاء له - عز وجل - فى العبادة حتى استحقوا به عبوديتكم لهم ، والأمر والاستفهام للتبكيك والإعجاز وإلزام الحجة عليهم - كما ذكرنا - ..

ثم أضرب عن هذا التبكيك بتبكيك آخر فى قوله عز وجل : ( بل الظالمون فى ضلال مبين ) ، فوضع الظاهر موضع الضمير تسجيلا

لما استحقوا به العذاب ، وهو ظلمهم وتعديهم - كما ذكرنا - وينبىء  
حرف الجر ( فى ) بانحطاط هؤلاء الظالمين ، وانغماسهم فى الضلال ،  
وهويهم إلى مهاوى الهلاك والعذاب . . .

اللهم باعد بيننا وبين عذابك ، وقربنا من رحمتك ، وارزقنا  
فهما صحيحا لكتابك وسنة نبيك - ﷺ - وجنبنا الزلل ، واجعل  
القرآن الكريم ربيع قلوبنا ، وذهب همنا وحزننا ، واجعله شفيعا  
لنا يوم لقائك ، واغفر وارحم وأنت خير الراحمين . . .





## القسم الثانى

من هدى الحديث النبوى الشريف

- ١ - حديث : ( الحلال بين والحرام بين ٠٠ )
- ٢ - حديث : ( يا غلام إني أعلمك كلمات ٠٠٠ )
- ٣ - حديث : ( كنا مع رسول الله - ﷺ - فى سفر ٠٠٠ )



عن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » . . . متفق عليه .

يعد هذا الحديث الشريف أحد الأحاديث التى عليها مدار الإسلام ، وقد عظم العلماء أمره ، فعدوه رابع أربعة أحاديث ، تدور عليها الأحكام كما نقل عن أبى داود وهى :

١ - هذا الحديث . .

٢ - حديث « إنما الأعمال بالنيات . . » .

٣ - حديث « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » .

٤ - حديث « ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند

الناس يحبك الناس » .

وقد نظم بعضهم ذلك فقال :

**عمدة الدين عندنا كلمات**

**مسندات من قول خير البرية**

**اترك المشبهات وازهد ودع ما**

**ليس يعينك واعملن بنية**

وعندما نتأمل الحديث لنندرك ما فيه من المزايا والأسرار

البلاغية - وهذا ما يعيننا - يتجلي لنا فيه :

إيجاز القصر فى قوله - ﷺ - « الحلال بين والحرام بين » فهذا التعبير يدل على معان كثيرة ، نحتاج للإفصاح عنها إلى ألفاظ وجمل عديدة ، فهو يدل على أن الحلال والحرام بينان واضحان جليان يعرفهما كل الناس ، ولا يحتاج أحد من الناس إلى من يعرفه الحلال والحرام ولا عذر لأحد يحل ما حرم الله أو يحرم ما أحل ، لأن الحلال والحرام من الواضوح بمكان ، وهذه المعانى قد أدت بأوجز لفظ وأبلغه « الحلال بين والحرام بين » فهذا من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام ..

وقد أعيد ذكر المسند ( بين ) ولم يكتف بذكره أولا مع الحلال ، فيقل : الحلال بين والحرام ، وذلك للدلالة على المبالغة فى وضوح كل منهما وبيانه ، وتميزه عن الآخر ، فالحلال بين متميز عن الحرام ، والحرام بين متميز عن الحلال ، ومن أجل ذلك أيضا ، لم يعطف الحرام على الحلال عطف مفرد على مفرد ، ويخبر عنهما بخبر واحد فيقل : الحلال والحرام بينان ..

ولا يخفى علينا الطباق بين ( الحلال والحرام ) وهذا الطباق مما يزيد المعنى جمالا ، ويثير النفس ، ويبعث فيها التأمل والنظر لإدراك ما وراء اللفظين ، وما ينبغى الالتزام به إزاء كل معنى من المعنيين ..

وفى قوله : « وبينهما مشبهات » نكرت « المشبهات » للدلالة على عظمها وخطورتها وخفاء حكمها ، فلا يدري كثير من الناس أمن الحلال هى أم من الحرام ، ولذا قال : « لا يعلمها كثير من الناس » وفى هذا القول حذف للمضاف ، والتقدير : لا يعلم خطورتها وضررها ، أو لا يعلم حكمها كثير من الناس ، وهذا

الحذف ينبىء بشدة خفائها وعظم ضررها ، وما ينبغى على الناس  
إزاءها من الحذر والحيطة ..

ونفى العلم عن الكثرة يدل على أن هناك قلة من الناس  
يعلمون حكمها ، وينبغى الرجوع إليهم فيها ، وهؤلاء هم  
الراسخون فى العلم ، وهم نفر قليل ، قال تعالى : « ولو  
ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه  
منهم .. » (١) .

وقد وضع الظاهر موضع الضمير فى قوله : « فمن اتقى  
الشبهات » إذ الأصل : فمن اتقاها ، وذلك للمبالغة فى وجوب  
اجتنابها ، والحذر من الوقوع فيها ، ولذا استخدم فى التحذير  
لفظ التقوى ( اتقى ) وهو إنما يستخدم فى الأمور العظيمة ،  
قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله .. » (٢)  
وقال عز وجل : « واتقوا النار التى أعدت للكافرين » (٣) ..

وفى قوله : « استبرأ لدينه وعرضه » استخدم لفظ ( استبرأ )  
للدلالة على المبالغة فى طلب البراءة ، يقال : استبرأت الشئ : أى  
طلبت آخره ، فالهمزة والسين والتاء للطلب ، يقال : استغفر أى :  
طلب المغفرة واستبرأ : طلب البراءة ، وفرق بين ( استبرأ لدينه )  
وبرىء دينه ، كما أن زيادة اللام فى ( لدينه ) تدل على توكيد  
الحكم ، والمبالغة فى طلب البراءة ، وعطف العرض على الدين  
ينبىء بما يجب على الإنسان تجاه عرضه ، فواجبه أن يستبرئ

---

(١) النساء : ٨٣ .

(٢) الحديد : ٢٨ .

(٣) آل عمران : ١٣١ .

له ، كما يستبرىء لدينه ، ووراء هذه الإضافة ( لدينه وعرضه ) ما يشعر بالتملك والحوزة ، والذي يحوز شيئاً ويتملكه ، يصونه ويحافظ عليه ، ويدافع عنه ، ويستبرىء له ..

وفى قوله : « ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه » تشبيه تمثيلى ، الغرض منه التحذير من الوقوع فى الشبهات ، حيث شبه - ﷺ - حال الذى لا يتحرز عن الشبهات فيقع فى الحرام بحال الراعى الذى يرعى حول الحمى المحظور - حمى الملوك - ولا يبتعد عنه ، فتغلبه غنمه فتقع فيما حماه الملك فيتعرض للعقوبة ..

وهذا من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس ، حيث مثل - ﷺ - الأمر المعنوى المدرك بالعقل بالأمر المشاهد المحس ، ووجه الشبه هو عدم التحرز من الوقوع فيما يضر فتحصل العقوبة .. وكان ملوك العرب يحمون لمراعى مواشيهم أماكن مختصة ، ويتوعدون من يرعى فيها بغير إذنه بالعقوبة الشديدة ، فمثل لهم النبى - ﷺ - بما هو مشهور عندهم لتتضح لهم هذه الحال المعنوية ، فالذى يخاف يبعد عن حمى الملك خشية أن تقع مواشيه فيه ولو اشتد حذره ، فالبعد أسلم ، وغير الخائف يقترب ، ويرعى حوله ، فلا يأمن أن تقع مواشيه فى شئ من الحمى بغير اختياره ، أو يغفل فيقع فى شئ منه ، فالله عز وجل هو الملك حقاً وحماه محارمه ..

وقد وضع الظاهر موضع الضمير أيضاً فى قوله ( ومن وقع فى الشبهات ) إذ الأصل : ومن وقع فيها ، مبالغة فى التحذير ، وعبر عن إتيان الشبهات بالوقوع المعدى بالحرف ( فى ) ( ومن

وقع فى ) ليدل على أن إتيان الشبهات وفعلها ، إنما هو هبوط  
وتدن وسقوط إلى الهاوية ..

وحذف جواب الشرط وتقديره : ومن وقع فى الشبهات وقع  
فى الحرام ، وهذا الحذف يشعر بضرورة أن يظل المؤمن بمنأى  
وبمعزل عن الحرام وعن الوقوع فيه ، وكأن حذفه من اللفظ  
يؤذن بضرورة طيه من واقع المسلمين وسقوطه من عالمهم (٤) ..

والتعبير بالفعل المضارع ( يرعى ) يدل على حدوث الرعى  
وتجدده واستمراره ، ومن شأن من يصنع هذا ، أى : يرعى رعيًا  
مستمرًا متجددًا حول حمى اللوك أن يقع فى المحذور ، ولو  
عبر بالماضى فقليل : كراع رعا حول الحمى ، ما أدى هذا  
المعنى ..

وقد حذف مفعول ( يرعى ) وتقديره : يرعى إبله أو غنمه  
أو مواشيه ، وهذا الحذف يدل على العموم ، وعدم التقييد بمفعول  
خاص أو بجنس خاص من الدواب التى ترعى ، ويصح إجراء  
الفعل المتعدى هنا مجرى الفعل اللازم فلا ينوى له مفعول  
ولا يراد ، ويكون المعنى على حدوث الرعى ووقوعه دون نظر إلى  
مفعول ، أى : كراع يكون منه رعى ..

وفى قوله - ﷺ - ( ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله  
فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة .. ) .

---

(٤) هذا على جعل ( من ) شرطية وهو الأولى لثبوت المحذوف فى  
صحيح مسلم وغيره ، ويمكن إغراب ( من ) موصولة ، وعندئذ  
فلا حذف إذ التقدير : والذى وقع فى الشبهات مثل راع يرعى  
حول الحمى ..

استخدمت أداة التنبيه ( ألا ) للدلالة على تحقيق ما بعدها ،  
فهي لا تستخدم إلا فى الأمور المهمة التى تحتاج إلى تأكيد وتحقيق ،  
كما مر بنا عند الحديث عن قوله تعالى : « ألا إنهم هم  
المفسدون » فى سورة البقرة ( ٥ ) ..

ولذا جاءت بعدها ( إن ) وكررت كل منهما ( ألا وإن ) وقدم  
المسند على المسند إليه فى ( لكل ملك حمى ) و ( فى الجسد  
مضغة ) وهذه كلها وسائل توكيد تدل على عظم الأخبار  
المذكورة وأهميتها ..

فقد بدأت بالتنبيه إلى أن لكل ملك حمى ، وتنكير ( حمى )  
يبدل على التعظيم والتفخيم ، ثم جاء الخبر الثانى ( ألا إن  
حمى الله فى أرضه محارمه » فكررت فيه الأداة ( ألا ) الدالة  
على الاهتمام وإثارة الانتباه ، وقد أضيف الحمى إلى لفظ الجلالة ،  
( حمى الله ) إشعارا بهيبته وارتفاع شأنه . وفى ( حمى الله )  
استعارة تصريحية أصلية حيث شبهت المحرمات التى حرمها الله بحمى  
الملوك والعظماء ، يحمى فلا يقربه أحد ، ثم استعير لفظ المشبه  
به للمشبه ..

ولعل فى ذكر الأرض ( فى أرضه ) ما يدل على أنها موطن  
هذه المخالفات فالوقوع فى الشبهات ، وفى المحرمات إنما يكون  
فى الأرض التى استخلف الله فيها آدم « وإذ قال ربك للملائكة إني  
جاعل فى الأرض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها  
ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم

مالا تعلمون ٠٠ « (٦) أما السماء فهي موطن الملائكة الذين « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ٠٠ » (٧) .

ثم جاء الخبر الثالث : ( ألا وإن فى الجسد مضغة ) فكررت فيه الأداة ( ألا ) مرة أخرى للتشويق ومضاعفة الانتباه ، وقد دخلت هذه المرة على ما يتوقف عليه صلاح الجسد أو فساده ، وهى المضغة التى استعيرت هنا للقلب بجامع الصغر فى كل ، وقد نكرت للدلالة على تقليلها تعجبا من أمرها ٠٠ .

ولا يخفى علينا أن الغاية من إيراد هذه الأخبار بهذه الصورة ، وعلى هذه الحال ، من التنبيه والتأكيد والتشويق والتحقيق ، إنما هى تغيير النفوس وترهيبها لاتقاء الشبهات ، احترازا من الوقوع فى الحرام .

وقد وجدت واو العطف فى قوله ( ألا وإن لكل ملك حمى ) وقوله ( ألا وإن فى الجسد مضغة ٠٠٠ ألا وهى القلب » وتركت فى قوله ( ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه ) فما سبب ذلك ؟

هذه الواو عاطفة لما ذكر بعدها على محذوف مقدر قبلها ، قد علم من السياق ، والتقدير : ألا إن الأمر كما تقدم من تشبيه الحرام بالحمى والشبهات بما حوله وإن لكل ملك حمى ٠٠٠ ألا إن الأمر كما ذكر من وجوب اتقاء الشبهات استبراء للدين والعرض وإن فى الجسد مضغة يصلح الجسد بصلاحتها وينفسد بفسادها ٠٠٠ ألا إن الجسد ليصلح بصلاحة مضغة ويفسد بفسادها وهى القلب ٠٠ .

(٦) البقرة : ٣٠ .

(٧) التحريم : ٦ .

والمناسبة المسوغة للعطف محققة بين المعطوف والمعطوف عليه المقدر ، إذ الحرام مشبه بالحمى ، والشبهات بما حوله ، وبين هذه الجملة وقوله ( إن لكل ملك حمى ) تناسب ومشاركة ..

وكذا بين ( اتقاء الشبهات ) وقوله ( إن فى الجسد مضغة ) مناسبة واضحة ، إذ الأصل فى اتقاء الشبهات والوقوع فيها القلب فهو العماد ، وعليه صلاح الجسد إذا صلح ، وفساده إذا فسد ..

وأما ترك الواو فى الجملة الثانية ( إلا إن حمى الله فى أرضه محارمه ) فلكمال الانقطاع ، وعدم وجود التناسب بين حمى الملوك وحمى الله ، فحمى الله هو الحمى الحقيقى وهو الجدير بأن يسمى حمى ، إذ لا ملك حقيقة ولا سلطان إلا الله الواحد القهار ..

وقد أوتر التعبير بإذا فى قوله ( إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ) للدلالة على أن صلاح الجسد لا يتحقق إلا بتحقق صلاح المضغة ، لأن ( إذا ) لتحقق وقوع الشرط ، كما أن فساده لا يكون إلا إذا تحقق فساد المضغة ، وذاك هو السر فى إثبات التعبير بإذا فى الموضوعين ..

ولا تخفى علينا المقابلة بين الصلاح والفساد فى قوله ( إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد الجسد ) وهذه المقابلة تزيد المعنى جمالا ووضوحا ، لأن الضد يظهر حسنه الضد ، كما أنها تنبه النفوس ، وتحثها على النظر والتأمل للوقوف على حقيقة هذه المضغة والعمل على إصلاحها ليتحقق بصلاحها صلاح الجسد كله ..

وقد وضع الاسم الظاهر موضع الضمير فى قوله ( إن فى

الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد  
الجسد كله ( إذ الأصل : إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح  
كله ، وإذا فسدت فسد كله ، والسر البلاغى وراء العدول عن  
عن الضمير إلى التعبير بالاسم الظاهر فى الموضعين أن يقع  
الصلاح على لفظ الجسد ، ويسند إليه ، وكذلك الفساد ،  
فيتأكد بذلك مضمون الخبر ، إذ الإسناد إلى الظاهر يؤكد المعنى  
ويحققه ، فليس الإسناد إلى الضمير كالإسناد إلى الظاهر ..



عن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - قال : كنت خلف  
النبي - ﷺ - يوما ، فقال : ( يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ  
الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ،  
وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن  
ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا  
على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ،  
رفعت الأقلام وجفت الصحف ) .

رواه الترمذى . وفى رواية غير الترمذى :

( احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك  
فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم  
يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب  
وأن مع العسر يسرا ) .

كثرفى هذا الحديث الشريف أسلوب الأمر وأسلوب الشرط ،  
وذلك مما يناسب مقام النصيح والتعليم ، وقد حفل الحديث  
بأسرار بلاغية متنوعة ، تدل على جوامع كلمه - ﷺ - وعلى  
تمكنه من لغة البيان ، وإن من البيان لسحرا . .

ويفهم من قول ابن عباس - رضى الله عنهما - ( كنت خلف  
النبي - ﷺ - يوما ) جواز الإرداف على الدابة إذا أطاقتة ، كما  
يدل ذلك على مدى تواضعه - ﷺ - وتنكير ( يوما يدل على التقليل ،  
أى : زمنا قليلا أو ساعة من نهار . .

وإيثار التعبير بالحرف ( يا ) فى ندائه - ﷺ - عبد الله بن  
عباس ( يا غلام ) وهو قريب منه ، مردف خلفه ، و ( يا )  
إنما ينادى بها البعيد ، فهى موضوعة له ، تعظيما لعبد الله بن

عباس - رضى الله عنهما - وإشعارا ببعده منزلته ، وحب النبى - ﷺ -  
وتقديره له ..

كما يدل على عظم الأمور الآتية بعد النداء ، وأنه ينبغى أن  
ينتبه لها وأن يهيا ذهن ، ويوقظ الفكر ، ليصغى بعناية واهتمام  
إلى ما سيلقى من أخبار وتوجيهات ، فتقع عندئذ فى النفس اللف  
موقع ، ويكون لها فيها أعظم الأثر ..

وقد رأينا أن النداء فى القرآن الكريم قد جاء بهذا الحرف ( يا )  
( يا أيها الذين آمنوا ... يا أيها الناس ... يا آدم ... يا أيها  
النفس .. ) ، والله عز وجل أقرب إلى عباده من حبل الوريد ،  
وإنما أوتر التعبير بما ينادى به البعيد لتهيئة النفوس لما سيلقى ،  
لأنها أمور مهمة ، ومعنى بها ( ٨ ) ..

( إنى أعلمك كلمات ) تأكيد الخبر هنا بعد النداء لمزيد من  
التنبيه والإيقاظ ، فهو تنبيه آخر بعد التنبيه بالنداء ، لتتيا  
النفس أكمل تهيئة وتستيقظ أتم استيقاظ ، وتصبح مستعدة لتلقى  
ما يلقي ، ولا يخفى علينا أن تأكيد الخبر واقع من جهتين ، دخول  
إن على الجملة الاسمية ، وتقديم المسند إليه على خبره الفعلى ( أنا  
أعلمك ) ، وقد مر بنا وجه دلالة هذا التعبير على التوكيد أو القصر  
حسبما يقتضى السياق ( ٩ ) ..

وتنكير ( كلمات ) للدلالة على التعظيم ، فهى كلمات قليلة  
فى ألفاظها ، ولذا عبر عنها بجمع المؤنث السالم وهو من جموع القلة ،  
فلم يقل : إنى أعلمك كلاما ، بل كلمات قليلة فى حروفها وألفاظها ،  
عظيمة فى فوائدها والانتفاع بها ..

وفى هذا القول ( إنى أعلمك كلمات ) إبهام تتطلع النفس إلى بيانه ، وتترقب إيضاحه ، وقد جاء الإيضاح فى قوله : ( احفظ الله يحفظك ) ، والإيضاح بعد الإبهام يجعل المعنى يتمكن فى النفس فضل تمكن ، لأن الإبهام والإجمال أولا ، جعل النفس تترقب وتتطلع إلى توضيح المبهم وتفصيل الجمل ، فعندما يأتى الإيضاح والتفصيل يقر فى النفس ويثبت ، لأنه جاءها وهى له مترقبة وإليه تتطلع ..

وفى قوله ( احفظ الله ) حذف المضاف ، وتقديره : احفظ أحكام الله وشرائعه ودينه ، وفيه استعارة مكنية ، حيث شبهت الشرائع والأحكام بالشئ الذى يسان ويحفظ من الضياع والأذى ، ثم حذف المشبه به ورمز له بشئ من لوازمه وهو الحفظ ( احفظ ) ، وفى هذا حث على الامتثال وإقامة شرع الله وتحقيقه ..

وفى قوله ( يحفظك ) حذف الجار والمجرور وهو المتعلق الثانى للفعل وتقديره : يحفظك فى نفسك وأهلك ودينك وديناك ، وهذا الحذف يفيد عموم الحفظ ، دون توقف عند محفوظ معين ، فمن حفظ الله ، والتزم أوامره ، واجتنب نواهيه ، وأسلم أمره إليه ، حفظه الله فى نفسه ودينه وأهله وفى دينه ، قال تعالى : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » (١٠) ، وقد حفظ الله الكنز تحت الجدار للغلامين اليتيمين ، لماذا ؟ لأن أباهما كان صالحا حافضا لله ، وقد ورد عن أحد الصالحين مخاطبا ابنه : لازیدن فى صلاحى من أجلك ، رجاء أن أحفظ فيك ..

وقد فصل بين هذه الجمل ( يا غلام ، إنى أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ) لكمال الانقطاع بلا إبهام ، لأن الجملة الأولى نداء

فهى إنشائية لفظا ومعنى ، والثانية خبرية لفظا ومعنى ، والثالثة أمر فهى إنشائية لفظا ومعنى . .

أما الفصل بين الجملتين ( احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ) ، فلكمال الاتصال ، لأن الجملة الثانية مؤكدة للأولى ، منزلة منها منزلة التأكيد المعنوى ، إذ يلزم من ثبوت معنى إحداها ثبوت معنى الأخرى . .

وقوله : ( تجده تجاهك ) تمثيل لحفظه تعالى وإحاطته وتأييده للمؤمن وعونه له ونصره إياه ، فهو استعارة تمثيلية ، ويصح جعله مجازا مرسلا علاقته السببية ، حيث أطلق المعية وأراد العون والتأييد ، والحفظ والنصرة والحراسة وما إلى ذلك ، والقرينة استحالة الحقيقة وهى المعية بالذات عليه تعالى ( ١١ ) .

---

( ١١ ) مثل هذه الصيغ والتعبيرات الواردة فى الحديث الشريف وآيات الذكر الحكيم والتي يوهم ظاهرها مشابته تعالى للحوادث ، كقوله تعالى : ( إن الله مع الصابرين . . إن الله معنا . . إن معى ربى . . وهو معكم أينما كنتم . . يد الله فوق أيديهم . . ) وقوله عليه الصلاة والسلام : ( احفظ الله تجده أمامك . . والذي نفسى بيده . . ) ونحو ذلك مما يوهم ظاهره المشابهة ، أوله المتأخرون ، وحملوه على المجاز ، وحددوا معناه فقالوا : المراد باليد : القدرة أو القوة ، والمراد بالمعية : النصر والتأييد ، أو العلم مجازا مرسلا حيث أطلق السبب وأريد المسبب ، أو هو تمثيل أى استعارة تمثيلية لحفظه تعالى وتأييده المؤمنين ، وإحاطة علمه تعالى بالكفار والمنافقين ، وتصوير عدم خروجهم عنه أينما كانوا . . أما علماء السلف فلم يمنعوا ما أجازة المتأخرون ، بل جعلوه احتمالا يحتمله الكلام ، ولم يلتزموه ، لأن القول بالالتزام قول بلا دليل ، ولذا ينبغى

وإيثار التعبير بقوله ( تجاهك ) دون غيره من باقى الجهات الست - فالتجاه هو الامام ، وقد صرح به فى بعض الروايات - إشعارا بشرف المقصد ، وبأن الإنسان مسافر إلى الآخرة ، والمسافر إنما يطلب أمامه لا غير ، والمراد تجده حيثما توجهت وتيممت وقصدت من أمر الدنيا والآخرة ، ففى ( تجاه ) مجاز مرسل علاقته الجزئية ، حيث أطلق الجزء تجاه أى : أمام ، وأراد الكل وهو سائر الجهات الست ، وإيثار ( تجاه ) بالتعبير يشعر بشرف المقصد ، كما أوضحنا . .

ومعية الله تعالى للعباد معية عامة ، وتلك تعنى المراقبة والإحاطة كما فى الآيات : « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم . . . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول . . . ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا . . . » (١٢) .

ومعية خاصة ، وتلك تعنى : حفظه تعالى للعبد وتأييده ونصره وعونه وحراسته ، كما فى الآيات : « لا تحزن إن الله معنا . . . كلا إن

=

السكوت عن الخوض فى تحديد معانى هذه الظواهر ، ويكتفى بمعناها الإجمالى ، الصارف لها عن الظاهر ، ولعل الذى ألجأ الخلف ، وهم المتأخرون ، إلى هذا التحديد ظهور بدع المشبهة والمجسمة وغيرهم ، فأرادوا سد باب الإيهام ، ودفع الوسواس عن العوام حتى لا يخرجوا عن دائرة التنزيه ، ولا يحوموا حول التشبيه . . أرجع إلى روح المعانى ١٦٨/٢٧ ، وانظر المختار من كنوز السنة للشيخ محمد عبد الله دراز ١٨٦ ، ١٨٧ .

(١٢) الآيات بالترتيب : الحديد : ٤ ، النساء : ١٠٨ ، المجادلة : ٢ ،

معى ربي سيهدين ٠٠ استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ٠٠ «(١٣) .

والمعنى فى كل على المجاز ، إما المجاز المرسل ، أو الاستعارة التمثيلية ، وفى تحديد المعنى المجازى المراد خلاف بين علماء السلف وعلماء الخلف - كما ذكرنا - ، فعلماء الخلف قد حددوا المعنى المجازى المراد ، وعلماء السلف لم يرضوا هذا التحديد ، وجعلوه احتمالاً يحتمله الكلام ، لا التزاماً يلتزم ، لأن القول بالالتزام قول بلا دليل ٠٠

وفى قوله ﷺ : ( احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ) ، فصل بين الجملتين لكمال الاتصال ، لأن الثانية مؤكدة ومقررة لمعنى الأولى ، فالأمر بالتوجه إلى الله بالسؤال يؤكد ويقرر معنى كونه - عز وجل - تجاه من يحفظه ، ولا يخفى علينا أن الجملة الثانية ( إذا سألت فاسأل الله ) جملة إنشائية ، إذ المعتد به فى الجملة الشرطية إنما هو جواب الشرط ، وقد وقع هنا أمراً ( فاسأل الله ) .

وفى قوله ( إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ) مجاز مرسل علاقته المسببية ، إذ المراد : إذا أردت أن تسأل فاسأل عن الإرادة ، كما فى قوله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعن بالله من الشيطان الرجيم » (١٤) ، والمعنى : إذا أردت أن تقرأ فاستعذ ، فالاستعانة مسببة عن الإرادة ، وواقعة بعدها ، لأن المؤمن إذا أراد أن

---

(١٣) الآيات بالترتيب : التوبة : ٤٠ ، الشعراء : ٦٢ ، البقرة : ١٥٣ .  
(١٤) النحل : ٩٨ .

يقرأ يستعيذ بالله أولاً ثم يقرأ ، فالإرادة تسبق الاستعاذة ، والاستعاذة تسبق القراءة . .

وقد عبر بإذا فى الموضوعين ( إذا سألت . . وإذا استعنت ) لأن سؤال المؤمن ربه وتوجهه إليه تعالى بالدعاء ينبغى أن يكون محققاً وواقعاً ، وكذا استعانته به وركونه إليه واعتماده عليه ، ينبغى أن يكون من الأمور المحققة الوقوع ، فالمؤمن يجب عليه أن يتجه إلى ربه بالسؤال ويطلب منه العون فهو وحده الرهاب والمعين ، وهو قريب من عباده ، يجيب دعاءهم إذا سألوه « وإذا سألك عبادى عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » (١٥) ، وخزائنه عز وجل لا تنفذ « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » (١٦) . . . « وما عندكم ينفذ وما عند الله باق » (١٧) ، ولا فائدة من سؤال غير الله لأنهم لا يملكون شيئاً ، وإذا سأل المؤمن ، أو استعان بغير ربه ، وكله الله تعالى إلى هذا الغير فباء بالخسران المبين .

ولله در القائل :

لا تسألن بنى آدم حاجة

وسئل الذى أبوابه لا تحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله

وبنى آدم حين يسأل يغضب

وقد رأى أحد من السلف الصالح رجلاً يشكو إلى آخر فاقته وحاجته ، فقال له : يا هذا ، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك . .

(١٥) البقرة: ١٨٦ .

(١٦) الحجر: ٢١ .

(١٧) النحل: ٩٦ .

وحذف متعلق ( سألت ... واستعنت ) والتقدير : إذا سألت أحدا ... وإذا استعنت بأحد ، وهذا التقدير - كما يقول عبد القاهر - تأباه النفس وتروم منك أن تنساه وتباعده عن وهمك وتجتهد ألا يدور فى خلدك ، وألا يعرض لخطر لك ، وتتوقاه توقى الشئ يكره مكانه ، والتقييل يخشى هجومه (١٨) .

والسر البلاغى وراء ذلك أن الحذف قد جعل الاستعانة والسؤال منصرفين إلى الله ، متجهين إليه ، لا يروم العبد ، ولا يتطلع فى سؤاله واستعانتة إلا إلى ربه ، ولا يخطر غير الله بخاطره ، وكان الفعلين قد أجريا مجرى اللزوم ، وصار المعنى : إذا كان منك سؤال ، وإذا وجدت منك استعانة ، فليكن لله وبالله ، وتقدير المحذوف يضيع هذا المعنى ، إذ يجعل اللفظ فى الشرط منصرفا لغير الله تعالى ..

وقد وصل بين هذه الجمل : ( إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة ... ) للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع من الوصل ، فهى جمل إنشائية ، والمعول عليه فى الجمل الشرطية ، إنما هو جواب الشرط - كما ذكرنا - وهو هنا فعل أمر ، فاسأل ، فاستعن ، ولذا تكون الجمل الثلاث جملا إنشائية ، وقد اتحد فيها المسند إليه ، أو اتحدت هى فى المسند إليه ، وهو ضمير المخاطب : اسأل .. استعن .. اعلم ..

والتعبير بفعل الأمر ( واعلم ) لتنبية المخاطب ، وإيقاظ المشاعر ، وتهيئة النفوس للتلقى ، والوقوف على ما يرد من أخبار ، فهو يستخدم فى الأمور المهمة التى تحتاج إلى تنبيه وإيقاظ وتهيئة ، قال تعالى : « واعلموا أن فىكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر

لعنتم ٠٠ « (١٩) ، وقال عز وجل : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذی القربى والیتامى والمساکین وابن السبیل ٠٠ « (٢٠) ، وقال جل وعلا : « فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن یصیبهم ببعض ذنوبهم » (٢١) ٠

ومثل الأمر بالعلم ، الأمر بالسمع والعقل والنظر ، كما فى قول الرسول - ﷺ - فى خطبة الوداع : ( أيها الناس اسمعوا قولى هذا واعقلوه فإنى لا أدرى لعلی لا ألقاكم بعد عامی هذا بهذا الموقف أبدا ٠٠ ) ، وكما فى قوله تبارك وتعالى : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » (٢٢) ، فإن المغزى من الأمر بهذه الأفعال ، إنما هو إثارة الانتباه ، وإيقاظ الأحاسيس ، وتهيئة النفس للتلقى ٠٠

ولو اجتمعوا <sup>على</sup> وفى قوله : ( لو اجتمعت أمة على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ٠٠٠ ) ٠

عبر بأداة الشرط ( لو ) - وهى حرف امتناع لامتناع - فى جانب الاجتماع للنفع ، وعبر بالأداة ( إن ) - وهى لندرة وقوع الشرط واستبعاده - فى الجانب الآخر وهو جانب الاجتماع للضر ، وذلك للدلالة على أن اجتماع الأمة للإمداد والنفع من المستحيلات الممتنعة ، واجتماعهم للأذى والضر من الأمور الممكنة الجائزة ، وأقصى ما يمكن أن يقال عن اجتماعهم للشر والأذى ، إنه مستبعد نادر ، ولكن ليس محالا ، كالاتحاد للنفع والإمداد ٠٠

- 
- ٠٧ (١٩) الحجرات :
  - ٠٤١ (٢٠) الأنفال :
  - ٠٤٩ (٢١) المائدة :
  - ٠١٠١ (٢٢) يونس :

ومما يلاحظ من فروق بين الشرطين : ( لو اجتمعتم ٠٠٠ وإن اجتمعوا ) أن الضمير قد أفرد فى الأول مراعاة للفظ الأمة ، وجمع فى الثانى مراعاة لمعناها ، ووراء ذلك مغزى بلاغى ينبغى التنبيه إليه ، وهو أن المراد بالأمة فى الحديث سائر المخلوقات ، كما صرحت به رواية الإمام أحمد ( فلو أن الخلق جميعا أرادوك ٠٠ ) ، وأما فى اللغة فتطلق الأمة على الجماعة ، وعلى أتباع الأنبياء ، وعلى الرجل الجامع للخير ، المقتدى به ، وعلى غير ذلك (٢٣) ٠٠

فعندما أفرد الضمير وقيل ( اجتمعتم ) دل ذلك على أن الاجتماع لسائر المخلوقات من إنس وجن وطير ودواب وغير ذلك ، فالاجتماع اجتماع نفع ، وغير الناس لهم منه نصيب ، ولكن اجتماع الأمة بهذا المعنى محال ، ولذا عبر بلو التى هى حرف امتناع لامتناع ٠٠

وعندما جمع الضمير وقيل ( اجتمعوا ) دل ذلك على أن الاجتماع للناس خاصة ، فالاجتماع اجتماع أذى وضرر ، وذا خاص بالناس ، وليس لغير الناس منه نصيب ، وصدق الله تعالى : « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ٠٠ » (٢٤) ٠ واجتماع الأمة بهذا المعنى قد يكون نادرا ، أو مستبعدا ، ولكنه ممكن وليس محالا ، ولذا عبر فيه بإن التى تفيد أن مدخولها من

---

(٢٣) كالدين والملة ( إنا وجدنا آباءنا على أمة ) ، والزمان ( وادكر بعد أمة ) والرجل المنفرد بدينه ( يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده ) ، وعلى الأم كهذه أمة زيد أى : أم زيد ، فالأمة من الالفاظ المشتركة التى تدل على معان كثيرة ٠٠

الأمر الممكنة ، دون ( لو ) التى تفيد أن مدخولها من المستحيلات  
المتنعة ..

وقد عبر بالماضى ( اجتمعت .. واجتمعوا ) ، والمعنى على  
الاستقبال للدلالة على تحقق الوقوع ، والمعنى : لو كان اجتماع الأمة  
محققا وواقعا ، واجتمعوا فعلا ، فلن يكون منهم نفع ولا ضرر ،  
ولو عبر بالمضارع فقول : واعلم أن الأمة لو تجتمع .. وإن يجتمعوا ،  
ما كان فى التعبير عندئذ دلالة على تحقق الوقوع ..

والتعبير بالمصدر المؤول فى الموضعين ( أن ينفعوك .. أن يضررك )  
دون المصدر الصريح : نفعك وضررك ، ليتأتى التعبير بالمضارع الذى  
يفيد الحدوث والتجدد والاستمرار ، فهم يجتمعون لا للنفع والضرر  
فحسب ، بل للتفنن فيهما والتصنع ، يتفننون كيف يحدثون النفع والضرر ،  
وكيف يكون نفعهم متجددا ومستمر ، وكذلك الضرر ، وبدون المضارع  
لن يكون هذا المعنى ، فالمصدر الصريح لا يؤديه ، ولذا عدل عنه إلى  
المصدر المؤول ..

وقد استخدم الحرف ( على ) فى الموضعين : ( على أن ينفعوك  
.. على أن يضررك ) للدلالة على تمكنهم وتحكمهم وسيطرتهم على  
وسائل النفع والضرر ، وفرق بين : اجتمعوا لينفعوا ويضروا ،  
واجتمعوا على أن ينفعوا ويضروا ، إن ( على ) دلت على قدرتهم  
وتمكنهم ، ومع القدرة والتمكن تفنن وتصنع فى كيفية النفع أو الضرر ،  
ومع هذا وذاك لا يجدى ما يفعلون ولا يكون نفع ولا ضرر إلا بما كتبه  
الله عز وجل ...

وتنكير ( شئ ) فى الموضعين : ( على أن ينفعوك بشئ .. على  
أن يضررك بشئ ) يدل على التقليل والتحقيق ، أى : بشئ قليل

حثير ، ومع قلة الشيء وحقارته لا يجدى ما يصنعون ، وأما تنكير ( بشيء ) الواقع بعد أداة الاستثناء ( إلا ) فللدلالة على التعظيم ، لأنه شيء قد كتبه الله تعالى ، وما كتبه لك أو عليك لا يكون إلا عظيما جليلا ..

وجاء النفي بلم فى الموضعين : ( لم يضروك .. لم ينفعوك ) ، للدلالة على أن الضر والنفع مقطوع بنفيهما ، لا توقع لثبوتها ، فإن منفى ( لم ) بالنسبة إلى المستقبل - كما هنا فى هذا الحديث - غير متوقع ثبوته ، وهذا أدل على نفي ضر الخلق ونفعهم ، لأنه باستخدام ( لم ) صار مقطوعا به ، لا توقع لثبوته ( ٢٥ ) .

وفى قوله ( لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك .. لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ) قصر لصفى النفع والضر على ما أراده الله للعبد وكتبه له وعليه ، وقد جاء القصر بالنفى والاستثناء ، تنزيلا للواضح المعلوم الذى لا يدفعه أحد ، منزلة المجهول الذى ينكره المخاطب ، وذلك تنشيطا للمهم وحثا للعقول على الامتثال والإقبال على الله ، فهو وحده النافع الضار ، ومن التمس النفع عند غيره ذل وذل ، واستحق الردع والزجر ، لأنه صار كأنه ينكر ويجحد الأمور الجليلة التى لا تجحد ..

وفى ( كتبه الله ) إيجاز بالحذف ، والتقدير : كتبه ملائكة الله بأمره تعالى وإرادته ، وهذا الحذف ينبىء بعظم المكتوب وشرفه ..

---

( ٢٥ ) وأما المنفى بلم بالنسبة للماضى فثبوته متوقع ، كما فى قولك : ما لى قمت ولم تقم ، فالقيام متوقع ، لأن المنفى ماضيا ، وأما الحديث فالمنفى فيه فى المستقبل ، كما هو واضح . أنظر مغنى اللبيب ١/ ٢٧٩ ..

ولا يخفى علينا الطباق فى قوله ( أن ينفعوك ، ولم ينفعوك ) ،  
وقوله ( أن يضروك ، ولم يضروك ) وهما طباقا سلب ، وكذا الطباق  
بين الضر والنفع فى قوله ( أن ينفعوك .. أن يضروك ) ، وبين  
لك وعليك فى قوله : ( كتبه الله لك ... وكتبه الله عليك ) ، لأن فى  
اللام معنى النفع ، وفى ( على ) معنى الضر ، قال تعالى : « لها  
ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ( ٢٦ ) •

وعلى الجملة ، وفى الحديث مقابلة بين قوله : ( لو اجتمعت على  
أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ) ، وقوله :  
( وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه  
الله عليك ) حيث قوبلت ثلاثة معان ، وهى النفع وعدم النفع ولك  
بثلاثة معان أخرى وهى الضر وعدم الضر وعليك ..

ومن شأن المقابلة أو الطباق أن يظهر المعنى ، وأن ينبه الأذهان ،  
ويحرك العقول ، إذ يجمع بين المعانى المضادة ، وبالوقوف عليها  
يزداد المعنى جمالا ، ورسوخا فى الأذهان ، واستقرارا فى العقول ..

وقد فصل قوله - ﷺ - ( رفعت الأقلام وجفت الصحف ) ،  
عما قبله للاستئناف البيانى المسمى بشبه كمال الاتصال ، حيث تضمن  
الكلام السابق سؤالا ، وقع هذا القول جوابا له ، وكأن سائلا سأل  
لم انتفى نفع الأمة وضررها ، فلا تنفع ولا تضر إلا بشيء قد كتبه  
الله عز وجل ؟ فجاء الجواب : لأنه قد رفعت الأقلام وجفت الصحف •

أما الوصل بين جملتى ( رفعت الأقلام وجفت الصحف ) فللتوسط  
بين الكمالين مع عدم المانع من الوصل ، حيث اتفقتا فى الخبرية

لفظًا ومعنى ، ووجدت المناسبة المصححة للعطف ، ومما حسن الوصل مجيء الجملتين على نسق واحد ، فكل منهما فعلية ، والفعل فى كل منهما مبنى للمفعول ، ونائب الفاعل جمع ، وهناك مراعاة نظير بين الأقسام والصحف .

وبناء الفعلين للمفعول ( رفعت وجفت ) يدل على التعظيم ، تعظيم قدرة الله عز وجل ، الذى يقول للشئ كن فيكون ، فحذف الفاعل للعلم به ، ولبيان كمال قدرة الله تبارك وتعالى ، والمراد بالأقسام : القلم الذى كتب به فى اللوح المحفوظ ، والمراد بالصحف : اللوح المحفوظ ، وقد جمعت هى والأقسام للدلالة على التعظيم . .

والتعبير ( رفعت الأقسام ، وجفت الصحف ) كناية عن القضاء الأزلى وفق العلم ، وتقدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد ، وهذا من أحسن الكنايات وأبلغها ، وفيه حث للتوكل على الله عز وجل ، والإعراض عما سواه ، لأن من علم ذلك وشهد به وأيقن ، أقبل على خالقه ، وأعرض عن كل ما سواه .

وفى قوله : ( تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ) طباق بين الرخاء والشدة قد جمل المعنى وقرره - كما ذكرنا - ومن دقائق التعبير فى هذا القول المخالفة بين الأمر وجوابه : تعرف إلى الله . . يعرفك ، ، فلم يقل : تعرف إلى الله يتعرف إليك مثلا ، وإنما جاء فعل الأمر مشددا ومعدى بإلى ، وجاء جواب الأمر ثلاثيما ومعدى بنفسه ، وذلك لأن العبد هو الذى يحتاج فى تعرفه إلى الله - تعالى - إلى مشقة وجهد ، وبذل وتعمل ، وتفان فى التقرب إليه ، أما المولى جل وعلا ، فحاشا له أن يحتاج إلى ذلك ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية ، ولذا فهو يعرف عباده ، وعباده هم المحتاجون للتعرف إليه ، وهذا من دقائق التعبير فى الحديث النبوى الشريف . .

( م ١٠ - بلاغة تطبيقية )

والتعرف إلى الله فى الرخاء ، كناية عن الإخلاص والتفانى فى العمل ، والإنفاق فى طرق الخير ، والمبالغة فى التقرب إلى الله بشتى أنواع القربات ، فإن التعرف إلى الله يستلزم ذلك ..

ومعرفة الله العبد ، كناية عن تفضله تعالى عليه بإجابة الدعاء وحسن الثواب فى الدنيا بتفريج الكربات وتخليص الشدائد ، وفى الآخرة بالفوز بالجنة والنعيم المقيم ..

وقد فصل بين جملتى : ( احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ) لكمال الاتصال ، لأن الجملة الثانية مقررة ومؤكدة لمعنى الأولى ، فهى منزلة منها منزلة التوكيد المعنوى ، إذ يلزم من ثبوت معنى إحداهما ثبوت معنى الأخرى ..

وأما وصل الجملة الثانية بما بعدها : ( تعرف إلى الله ... واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك .. واعلم أن النصر مع الصبر .. ) فلتلوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، إذ انفقت هذه الجمل فى الإنشائية لفظا ومعنى ، ووجد بينها التناسب المصحح للوصل ..

والأمر بالعلم وتكراره فى قوله : ( واعلم أن ما أخطأك ... واعلم أن النصر ... ) للتنبيه والإيقاظ ، وتهيئة النفوس لتلقى ما يتلوه من أخبار ، إشعارا بعظمتها وأهميتها ، على نحو ما بينا فى قوله : ( واعلم أن الأمة ... ) .

واستخدام ( ما ) الموصولة فى الموضعين ( ما أخطأك ... ما أصابك ) للدلالة على التفضيم والتعظيم ، وقد بولغ فى النفى فى قوله ( لم يكن ليصيبك ... لم يكن ليخطئك ) من جهات ، وهى تسليط النفى على فعل الكينونة ، ودخول اللام المؤكدة للنفى على الخبر ، وسريان النفى فى الخبر ..

فما أخطأ الإنسان مهما كان عظيماً ينبغي ألا يشغل به ، لأنه لم يقدر له وإنما قدر لغيره ، وما أصابه مهما بلغ عظمه ، فهو له ، ولن يتخطاه إلى غيره ، فعلى الإنسان ألا يفرح بما أوتى ، ولا يحزن على ما فاته « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ٠٠ » ( ٢٧ ) ، تلك هى الغاية من الدلالة على التهويل والتعظيم ، والمبالغة فى النفى فى قوله : ( ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك ) .

وجود كلمة ( مع ) فى قوله : ( واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا ) ، يشعر برباء النصر والفرج واليسر ، ويؤذن بسرعة حصول كل منها عند حصول مقابله ، وقد توالفت هذه الجمل ( الصبر مع الصبر ٠٠ الفرج مع الكرب ٠٠ مع العسر يسرا ) بهذا الإيقاع السريع ، مما يشعر بالأمل ، ويفتح باب الرجاء ، ويحث المؤمن على الإقبال على ربه ، وحسن التوكل عليه ٠٠

ولا يخفى علينا مزية الطباق بين : أخطأ وأصاب ، ويخطيء ويصيب ، والفرج والكرب ، والعسر واليسر ، وما أحدثه هذا الطباق من إيضاح للمعنى وتقريره وترسيخه فى الأذهان ، وبعث للنفوس على النظر والتأمل لاختيار ما هو خير لها ، والإسراع إلى قبوله وإلى امتثاله ، والابتعاد عما هو شر وهلاك ٠٠

وتنكير ( يسرا ) للدلالة على التعظيم ، كما جاء فى قوله تعالى :

« فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا » ( ٢٨ ) ، أى : يسرا

( ٢٧ ) الحديد : ٢٢ ، ٢٣ .

( ٢٨ ) الشرح : ٦٠٥ .

عظيما ، ومن ثم ورد عنه - ﷺ - : ( لن يغلب عسر يسرين ) فإن النكرة إذا كررت كانت الثانية غير الأولى ، والمعرفة إذا أعيدت كانت الثانية عين الأولى غالبا فيهما ، وذلك هو المراد فى الآية الكريمة ..

ومما يلاحظ فى الحديث الشريف أن لفظ الجلالة ( الله ) قد تكرر ثمانى مرات فى ثمانية مواضع ، ست مرات فى رواية الترمذى ، ومرتين فى رواية غيره ، والغرض من هذا التكرار ، تربية المهابة ، وزيادة التمكين فى النفوس ، والتبرك والتمتع بالنطق بالاسم الجليل ..

كما يلاحظ أنه قد كثر أسلوب الأمر الذى يعقبه جواب ( احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده .. تعرف إلى الله .. يعرفك .. ) كما كثر أيضا أسلوب الشرط ( إذا سألت .. وإذا استعنت .. لو اجتمعت .. إن اجتمعوا ) وهذا مما يناسب مقام التعليم والإرشاد ..

ويعد هذا الحديث الشريف ، وما ورد به من تعبيرات ، أمثلة واضحة ونماذج جلية ، لجوامع كلمه ﷺ ( احفظ الله يحفظك .. ما أخطأك لم يكن ليصيبك .. تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة .. النصر مع الصبر .. ) إلى آخر ما قال - ﷺ - وما عليك إلا أن تعود إلى الحديث الشريف ، وتتذوق ، وتتأمل كل جملة من جملة ليتضح لك ما وراءها من مقاصد جلية ومعان غزيرة ، وتلك هى جوامع كلمه - ﷺ - التى آتاه الله إياها .

( ٣ )

عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة - رضى الله عنه قال :  
« دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله تعالى  
عنهما - جالس فى ظل الكعبة ، والناس مجتمعون عليه ، فاتيتهم  
فجلست إليه ، فقال : كنا مع رسول الله - ﷺ - فى سفر ، فنزلنا  
منزلا ، فمنا من يصلح خبائه ، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو فى  
جشره ، إذ نادى منادى رسول الله - ﷺ : الصلاة جامعة ، فاجتمعنا  
إلى رسول الله - ﷺ - فقال : ( إنه لم يكن نبى قبلى إلا كان حقا عليه  
أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وإن  
أمتكم هذه جعل عافيتها فى أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها ،  
وتجىء فتن يرقق بعضها بعضا ، وتجىء الفتنة فيقول المؤمن : هذه  
مهلكتى ، ثم تنكشف ، وتجىء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه ، فمن أحب  
أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم  
الآخر ، وليأت إلى الناس الذى يجب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماما فأعطاه  
صفة يده ، وثمره قلبه ، فليطعه إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه ،  
فاضربوا عنق الآخر » ، فدنوت منه فقلت له : أنشدك الله أنت سمعت  
هذا من رسول الله - ﷺ - فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه ، وقال :  
سمعت أذناى ووعاه قلبى .. » رواه مسلم .

يتجلى لنا فى هذا الحديث الشريف ما كان عليه الصحابة  
- رضوان الله عليهم - من رغبة فى العلم ، وحرص على تلقيه ،  
ووعى وإدراك لما سمعوه من رسول الله - ﷺ - يظهر لنا ذلك جليا  
فى عبارات الحديث ، ولنتأمل : ( جالس فى ظل الكعبة .. الناس  
مجمعون عليه .. أتيتهم فجلست إليه .. سمعته أذناى ووعاها .. )

قلبي .. ) ، فتلك الجملة تنبىء بما كانوا عليه من حرص ورغبة في العلم ، ووعى وإدراك لما سمعوه من النبي - ﷺ - وانظر إلى التعبير باسمى الفاعل ( جالس ) ، ( مجتمعون ) ، ثم تأمل هذا القيد ( عليه ) والقيد الآخر ( إليه ) فاجتماعهم عليه لا حوله ، وجلوسه إليه لا عنده ، وعبد الله بن عمرو جالس في ظل الكعبة ، مواصل لجلوسه ، مستمر فيه ، والناس عليه مجتمعون ، مواصلون لاجتماعهم ، ثابتون فيه ، هذا ما يفيدته التعبير باسمى الفاعل ( جالس ومجتمعون ) وما يمكن إدراكه من دلالتهما ، ولما أتاهم عبد الرحمن ، جلس إليه ، .. رغبة قوية ، وحرص شديد على مدارس العلم ، ومواصلة الدراسة ، واستمرار التلقى ..

وما يحدث به عبد الله بن عمرو عن رسول الله - ﷺ - دق أدركه إدراكا تاما ، ووعاه وعيا كاملا ، ولذا لما سأله عبد الرحمن : سمعت هذا من رسول الله - ﷺ - ؟ أجابه مؤكدا : سمعته أذناى ووعاه قلبي ، وأشار بإحدى يديه إلى أذنيه ، وبالأخرى إلى قلبه ، فإسناد السمع إلى الأذن ، والوعى إلى القلب مجاز عقلى ، حيث أسند الفعل إلى الله ، مبالغة فى توكيد الخبر .

وقد تناول النبي - ﷺ - فى الحديث عدة أمور ، إذ تحدث عن مهمة الانبياء والرسل ، وأشار إلى ما سيحدث من فتن ، وأنه لا يأتى (رمانا) إلا الذى بعده شر منه ، وأشار إلى النجاة من هذه الفتن ، وذكر وجوب السمع والطاعة للإمام ، والوفاء ببيعته ، فتعالوا ننظر ونتأمل ما ذكره المصطفى - ﷺ - ونتعرف على ما به من أسرار ومزايا بلاغية ..

استطاع عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - بتصوير دقيق ، أن يقفينا على حال الصحابة - رضوان الله عليهم - عندما نزلوا ذلك

المنزل « فمننا من يصلح خبائه ، ومننا من ينتضل ومننا من هو فى جشره » (١) ، وكأنا نشاهدهم - رضى الله عنهم - وقد شغل كل منهم بأمره ، هذا يصلح خبائه ، وذا ينتضل بالسهام تدربا ، وذاك فى جشره يرعى شئونه ، وينظر فيه ، فالتعبير بالمضارع ( يصلح .. وينتضل ) يصور لنا الحدث واقعا مشاهدا ، والتعبير بالحرف ( فى ) يشعر بمدى انشغال أولئك الذى انصرفوا إلى جشهم ، فقد تمكن الجشر منهم تمكن الظرف من المظروف ..

وهذا التقسيم الذى قسمه عبد الله : ( فمننا من يصلح خبائه ومننا من ينتضل ومننا من هو فى جشره ) يبرز لنا ما كان عليه الصحابة - رضوان الله عليهم - فها هم أولاء مع رسول الله - ﷺ - فى سفر وقد نزلوا منزلا للراحة ، فشغلوا بشئونهم ، وما هى تلك الشئون التى شغلوا بها : إصلاح الأخبية ، والانتضال تدربا ، والنظر فى شئون دوابهم ، تلك حالهم فى وقت راحتهم ، لم يشغلوا بلهو أو عبث ، وإنما انشغلوا بالخير والعمل الصالح ، رضوان الله عليهم أجمعين ..

وبينما هم كذلك منشغلون بأمورهم فى ذلك المنزل الذى نزلوه ..

---

(١) الخباء بكسر الخاء : ما يعمل من وبر أو صوف ، وقد يكون من شعر ، قال تعالى : ( ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ) النحل : ٨٠ ، وجمع الخباء : أخبية ككساء وأكسية ، ويكون على عمودين أو ثلاثة ، وما فوق ذلك فهو بيت ، .. ومعنى ( ينتضل ) : يرمى بالسهام تدربا .. والجشر ، بفتح الجيم والشين : الدواب التى ترعى وتبيت فى مكانها ، ويطلق لفظ ( جشر ) على الذى يظل بمرعاه ولا يأوى إلى أهله ، فالجشر : قوم يخرجون بدوابهم إلى المرعى ، ويبيتون مكانهم لا يأوون إلى البيوت ، والمراد فى الحديث : ومننا من شغل بدوابه تلك ، يربعاها وينظر فى شئونها ..

( إذ نادى منادى رسول الله - ﷺ - الصلاة جامعة ، فاجتمعنا إلى رسول الله - ﷺ - ) .

إضافة المنادى إلى رسول الله - ﷺ - فى قوله : ( نادى منادى رسول الله ) تدل على تعظيم المضاف ورفعته شأنه ، والتعبير بالفاء فى قوله : ( فاجتمعنا ) تشعر بسرعة الإجابة وتلبية النداء ، فما أن سمعوا النداء حتى اجتمعوا إلى الرسول - ﷺ - كما يشعر التعبير بحرف الجر ( إلى ) بمدى حرصهم وترقبهم وتطلعهم إلى ما يريد - ﷺ - ولذا لم يقل : فاجتمعنا عنده مثلا ، وإنما قال : فاجتمعنا إليه . .

وقول المنادى : ( الصلاة جامعة ) خبر أريد به الإنشاء ، إذ المعنى : اجتمعوا للصلاة ، والغرض من وضع الخبر موضع الإنشاء حمل المخاطب على تحقيقه وتحصيله ، حيث أبرزه المتكلم فى معرض الواقع المحقق رغبة فى وقوعه ، وحرصا على تحصيله . .  
ومن ذلك قوله - ﷺ - ( لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب ) فالمراد : لا تجمعوا فى جزيرة العرب بالنهاى ، وقد جاء بصيغة الخبر حملا للمسلمين على تحقيق ذلك وتحصيله ، والجهاد فى سبيل رفع راية الإسلام حتى لا تعلوها راية . .

ومنه قوله تعالى : « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين » (٢) ، فقوله ( لا ينكح . . لا ينكحها ) خبر أريد به النهى ، وفى بعض القراءات بالجزم على النهى ، وعلى قراءة الرفع يكون قد وضع الخبر موضع الإنشاء مبالغة فى الزجر والردع ، حيث أبرز المنهى عنه فى معرض الواقع المحقق رغبة فى تحقيقه وحرصا على تحصيله . .

ومن ذلك أيضا صيغ الدعاء كقولنا : رضى الله عنه .. رحمه الله .. لا سمعت مكروها .. فإن المراد : اللهم ارض عنه وارحمه ولا تسمعه مكروها ، والتعبير بالخبر فيه إشعار بأن الدعاء قد حصل وتحقق ، وفى ذلك من التفاؤل ما لا يخفى ..

وبعد نداء المنادى : ( الصلاة جامعة ) من الطبيعى أن تؤدى الصلاة ، التى نودى لها ، مع النبى - ﷺ - وبعد أدائها يكون حديثه إليهم ، وكان المعنى : فاجتمعنا إلى رسول الله - ﷺ - فصلينا معه ، وبعد الصلاة حدثنا - ﷺ - فقال ...

وقد سكت الراوى عن ذلك المحذوف ، وطواه لظهوره وجلائه ، ومثل هذا الحذف يحسن فى الكلام ويلطف ، لأن الجمل التى لا يحتاج إليها الكلام لظهورها ظهورا بينا ، وسهولة إدراكها منه ، يحسن طبيا حتى لا يترهل بها الكلام ، وهم يذكرون من أغراض الحذف : الاحتراز عن العبث ببناء على الظاهر ..

فقال : ( إنه لم يكن نبى قبلى إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ) .

بدأ - ﷺ - حديثه بتنبية الصحابة ، وإيقاظ مشاعرهم ، حيث ذكر مهمة الأنبياء ، والغرض الذى أرسلوا من أجله ، فإنهم لم يرسلوا إلا للتبليغ ودلالة أمتهم على خير ما يعلمون لهم وإنذارهم شر ما يعلمونه لهم ، ومراده - ﷺ - أن ينتبه الصحابة لكى يدركوا حقيقة ما سيخبرهم به ، فعندما يتذكرون أن الرسول لم يرسل إلا لدلائتهم على الخير ، وإنذارهم الشر ، ينتبهون لما يقوله ، ويصغون إليه ، لكى يقفوا على حقيقته ويدركوه ..

وقد قصر - ﷺ - مهمة الرسل والغرض الذى أرسلوا من أجله

على وجوب التبليغ والتعليم والإنذار ، قصر موصوف على صفة ،  
قصرا حقيقيا ، فأرسال الرسل مقصور على التبليغ منفى عما عداه  
مما يتنافى مع التبليغ ..

وفى إثارة التعبير بالنفى والاستثناء للدلالة على القصر دون (إنما)  
تنزيل للأمر المعلوم الواضح الذى لا ينكره الصحابة ، منزلة  
المجهول الذى يدفع وينكر ، وذلك تنشيطا للهمم ، وحثا للعقول على  
الإقبال والامتثال ، والإصغاء لما يليق به - ﷺ - إليهم ..

وبتأمل أسلوب القصر وبناء جملته فى الحديث الشريف ، نجده  
قد بنى بناء يجلى مهمة الرسل - عليهم السلام - ويؤكد هذه المهمة  
التي وجب عليهم القيام بها ، فقد عبر بإن لتوكيد الخبر ، وقال :  
( لم يكن نبى ) ، فعبر مضارع ( كان ) المنفى بلم ، وهو إما تام ،  
والمعنى : لم يوجد نبى قبلى إلا لهذه المهمة ، وفرق بين قولنا :  
لم يرسل نبى إلا للتبليغ والإنذار ، وما عليه نظم الحديث ( لم يكن  
نبى قبلى ) ، فنظم الحديث أفاد أن الرسل لم يوجدوا أصلا  
إلا لتلك المهمة ..

وإما ناقصا قد حذف خبره ، والمعنى : لم يكن نبى قبلى متصفا  
بصفة من الصفات إلا بصفة التبليغ والإنذار ، فقد نفى عنهم كل وصف  
ما عدا البلاغ الذى وجدوا من أجله ، وخلقوا له ..

هذا فى جانب المقصور ، فإذا انتقلنا إلى بناء المقصور عليه  
وجدنا قوله : ( حقا ) مصدرا مؤكدا لنفسه ، والمعنى : إلا حق عليه  
حقا أن يدل أمته ، ( فحقا ) مصدر مؤكد لفعل محذوف من لفظه ،  
ووجدنا أيضا : التعبير بالمصدر المؤول ( أن يدل ) وعطف قوله :  
( وينذرهم ) عليه ، وذلك ليتأتى التعبير بالفعل المضارع الذى يدل

على التجدد والاستمرار ، ولو عبر بالمصدر الصريح ، فقيل : إلا كان حقا عليه دلالة أمته على الخير وإنذارهم الشر ، لضاع هذا المعنى الذى يؤديه المضارع ..

ونجد كذلك التعبير بالاسم الموصول ( ما ) فى موضعيه : ( خير ما يعلمه لهم ... شر ما يعلمه .. ) يدل على التعظيم والتهويل والإبهام ، فالذى يعلمه الانبياء مما علمهم الله إياه ، وأمرهم أن يدلوا أممهم عليه ، خير عظيم هائل ، لا يدرك كنهه ، ولا يحيط به إلا من انتبه وأمعن النظر وألقى السمع وهو شهيد ، وكذلك الشر الذى أمروا أن يندروهم إياه ..

وبهذا يتضح لنا كيف بولغ فى تجلية مهمة الانبياء وإبرازها والكشف عنها ، وقد بدأ المصطفى - ﷺ - حديثه ببيان ذلك ليوقظ الصحابة ، ويثير انتباههم ، فيصغوا إلى ما سيلقيه إليهم من أخبار - كما ذكرنا - ويعوه وعيائا تاما ..

( وإن أمتكم هذه جعل عافيتها فى أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها ، وتجيء فتن يرقق بعضها بعضا ، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتى ، ثم تنكشف ، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه هذه ) .

يخبرنا - ﷺ - بما سيصيب آخر هذه الأمة من بلاء وفتن وأمور منكرة ، وأن أولها قد عافاه الله من تلك الفتن ، وسلمه من البلاء والأمور المنكرة ..

واختلف العلماء فى تحديد أول الآخر لهذه الأمة فقال بعضهم : المراد بأول الأمة : زمان النبى - ﷺ - والخلفاء الثلاثة إلى مقتل عثمان - رضي الله عنه - فهذه كانت أزمنة اتفاق هذه الأمة ، واستقامة

أمرها ، وعافية دينها ، فلما قتل عثمان - رضى الله عنه - هاجت  
الفتن ، ولم تزل ولا تزال إلى يوم القيامة ، وعلى هذا فأول الآخر  
ما بعد مقتل عثمان ، وهو آخر بالنسبة لما قبله من زمن العافية ،  
واستدلوا على ذلك بقوله - ﷺ - ( وأمور تنكرونها ) ، فإن الخطاب  
فيه للصحابة ، وهذا يدل على أن منهم من يدرك أول ما جعله - ﷺ -  
آخرًا ، وقد كان ذلك ، حيث شهد كثير منهم تلك الفتن التي هاجت  
بعد مقتل عثمان رضى الله عنه . .

وقيل : المراد بالأول : زمان الصحابة والتابعين ، وبالأخر  
ما بعدهما ، ودليل ذلك قوله - ﷺ - « خير القرون قرنى ثم الذين  
يلونهم ثم الذين يلونهم . . » ( ٣ ) . .

ويمكن رد ما استدل به أصحاب الرأى الأول بأن الخطاب فى قوله  
- ﷺ - ( وأمور تنكرونها ) عام لجميع المسلمين ، وليس خاصا  
بالصحابة رضوان الله عليهم .

ولغرابة الخبر الذى يخبر به - ﷺ - جاء تأكيده بإن واسم  
الإشارة فى قوله : ( إن أمتكم هذه ) ، وبالسين فى قوله : ( وسيصيب  
آخرها بلاء ) ، وذلك لأن الخبر عندما يكون غريبا تقتضى غرابته أن  
أن يؤكد ليهيىء التوكيد النفس لقبوله ، ويبدد ما به من غرابة . .

وقد حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول فى قوله - ﷺ - : ( جعل  
عافيتها فى أولها ) ، وذلك للعلم بالفاعل ووضوحه ، والمعنى : جعل  
الله عافيتها فى أولها ، والعافية : السلامة من فتن الدين ، وفى حديث  
أبى بكر - رضى الله عنه - ( سلوا الله العفو والعافية ) أما العفو فهو

محو الذنوب والسيئات ، وأما العافية فهي أن يعافى الله من السقم  
والبلايا والعلل (٤) .

وتنكير البلاء والأمور والفتن فى قوله - ﷺ - ( وسيصيب  
آخرها بلاء وأمور تنكرونها ، وتجيء فتن ) للدلالة على التعظيم  
والتهويل ، ولذا وصفت الأمور بقوله : ( تنكرونها ) ، ووصفت الفتن  
بقوله : ( يرقق بعضها بعضا ) ، وجاء وصفها فى حديث آخر بأنها  
كقطع الليل المظلم ، وذلك فى قوله - ﷺ - : « بادروا بالأعمال  
الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسى  
كافرا ، ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من  
الدنيا » (٥) .

ومعنى : ( يرقق بعضها بعضا ) : يصير بعضها بعضا رقيقا  
خفيفا لعظم ما بعده ، فالثانى يرقق الأول ، أى : أن الفتن تبدأ خفيفة  
ضئيلة ثم تعظم ، وكلما جاءت فتنة ضلت أمامها ما قبلها لعظم  
الثانية ، ويؤيد ذلك ما رواه البخارى أن الناس أتوا أنس بن مالك  
- رضى الله عنه - فشكوا إليه ما يلقونه من الحجاج ، فقال لهم :  
( اصبروا فإنه لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم ،  
سمعتة من نبيكم - ﷺ - ) .

وقيل معناه : يشبه بعضها بعضا ، وقيل : يسوق بعضها بعضا  
بتحسينها وتسويلها ، وقيل : يدور بعضها فى بعض ويذهب  
ويجىء به (٦) .

وروى ( يدفق بعضها بعضا ) بفتح الياء وكسر الفاء أى : يدفع  
ويصب ، والمعنى على تشبيه الفتن ، بموج البحر يدفع بعضه بعضا ،

(٤) انظر لسان العرب مادة : عفا .

(٥) رواه مسلم .

(٦) انظر دليل الفالحين ١٣٥/٣ .

وئشبيه المؤمن وسط هذه الفتن بالعائم الذى تتقاذفه الأمواج ، فإذا أقبلت عليه موجة قال : هذه مهلكتى ، ثم تروح عنه تلك الموجة فتأتيه أخرى فيقول : هذه هذه ، أى : هذه التى ستغرق لا محالة ، فضعيف الإيمان تأخذ هذه الأمواج فيهلك ، وقوى الإيمان يعض على سنة رسول الله - ﷺ - بالنواجذ حتى ينجو من الغرق ، هذا ما أمرنا - ﷺ - أن نواجه به الفتن حين قال : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشى ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا . فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » (٧) .

وجملة ( يرقق بعضها بعضا ) إما صفة للنكرة قبلها ( فتن ) - كما ذكرنا - وإما مستأنفة استئنفاً بيانياً ، وكأن سائلاً سأل : ما صفة هذه الفتن العظيمة المهلكة ؟ فأجب : يرقق بعضها بعضا ..

وإسناد الإهلاك إلى الفتنة فى قوله - ﷺ - : ( هذه مهلكتى ) إسناد مجازى ، حيث أسند اسم الفاعل إلى سببه ، وذلك لتصوير شدة الفتنة ، والمبالغة فى أثرها على المؤمن .

وإنما خص النبى - ﷺ - المؤمن بالذكر ، وأسند إليه القول فى قوله : ( فيقول المؤمن هذه مهلكتى ) لأن المؤمن هو الذى يشعر بعظم هذه الفتن ، ويدرك خطورتها ، وأما غير المؤمن فينغمس فى هذه الفتن والأمور المنكرة ، ويعلوه موجها ، فيأخذه إلى قاع الهلاك والعذاب .

وأل فى قوله : ( وتجيء الفتنة ) للجنس ، فالمحلى بها نكرة

من حيث المعنى ، ولذا فإن الفتنة الثانية غير الأولى ، لأن النكرة إذا كررت كان الثانى غير الأول ، والمراد : وتجيء الفتنة العظيمة فيفزع المؤمن ، ويقول هذه هي الفتنة المهلكة التي ستهلكنى ، ثم تنكشف بأمر الله عن المؤمنين ، وتجيء فتنة أخرى أعظم وأفزع من الأولى ، فيفزع المؤمن ويقول : هذه هذه ، وتتوالى الفتن ويكثر البلاء . .

فقوله : ( هذه هذه ) مسند ومسند إليه ، فهما وإن اتحدا لفظا إلا أنهما تغييرا معنى ، والمراد : هذه الفتنة هي الفتنة العظمى التي فيها الهلاك ، والتعبير باسم الإشارة وتكراره لفظا لتعظيم الأمر وتفخيمه ، ومثله فى غير اسم الإشارة أن يقال فى مقام المدح والثناء : ذاك هو البطل وبطشه بطشه ، وهذا هو المحدث وعلمه علمه ، وذلك هو الناصح ورأيه رأيه . .

( فمن أحب أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه ) . .

ثم بين - ﷺ - طرق النجاة من هذه الفتن التي ستصيب آخر هذه الأمة ، وهو أن يقبض المؤمن على دينه ، ويتمسك بالكتاب والسنة ويعض عليهما بالنواجذ ، ولا يظلم أحدا كما يحب ألا يظلمه أحد ، فليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه ، وليمنع عنهم ما يحب أن يمنع عنه . .

وقد حذف الفاعل وبنى الفعل للمفعول فى قوله : ( يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ) ، وذلك للعلم بالفاعل وهو المولى عز وجل ، والمعنى : فمن أحب أن يزحزحه الله عن النار ويدخله الجنة . .

والتعبير بالزحزحة يشعر بالاقتراب من النار ، وصيرورته على شفا حفرة منها ، ولم يعد أمامه سوى أن يزحزح عنها فينحى ويبعد ،

ويوجه إلى طريق الجنة ، أو يترك فيسقط في النار ، وفي بعض الروايات : ( فمن أحب أن يخرج نفسه من النار ويدخل الجنة ) فأطلق الإخراج وأراد المباحة على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته التلازم ، لأن الخروج يستلزم المباحة ، والتعبير بالإخراج عن المباحة يشعر بشدة الاقتراب من النار ، حتى كأنه قد دخلها بالفعل ... والمراد بالأمر في قوله : ( فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ) الدوام على الإيمان والحث على الاتصاف به والاستمرار عليه طوال الحياة ، كما يقال : مت وأنت كريم ، ولا يراد بذلك حقيقة الأمر ، وإنما المراد الحث على الاتصاف بتلك الصفة والدوام عليها طوال حياته ، ومن ذلك قوله تعالى : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ( ٨ ) ، فليس المراد حقيقة النهى ، وإنما أريد (البحث) على التمسك بالإسلام والاستمرار عليه طوال حياتهم ، فإذا جاءهم الموت ، وهو لا يأتي إلا بغتة ، ماتوا وهم مسلمون ..

وقيد الإيمان ( بالله واليوم الآخر ) لمزيد الاهتمام والعناية ، ولأن الإيمان بهما يستلزم الإيمان بغيرهما ، فهما الأصل والأساس ، ومن أتى بهما كان أتيا بغيرهما من نحو الإيمان بالملائكة والكتب والرسل والقدر ..

وقوله - ﷺ - : ( وليأت إلى الناس الذي يجب أن يؤتى إليه ) ذكر للخاص بعد العام ، اعتناء بشأن الخاص ، لأن التمسك بالإيمان طوال الحياة يندرج تحته إتيان الناس ما يجب أن يؤتى إليه ، وهذا من جوامع كلمه - ﷺ - وبدائع حكمه ، ومثله قوله - ﷺ - : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ( ١٩ ) .

( ٨ ) البقرة : ١٣٢ .

( ٩ ) رواه البخاري ومسلم .

ووراء حذف الفاعل وبناء الفعل للمفعول فى قوله - ﷺ - :  
( الذى يحب أن يؤتى إليه ) معنى دقيق يحتاج إلى وعى لإدراكه  
وهو الدلالة على أن المؤمن يجب عليه أن يحب للناس أن يأتى  
إليهم كل ما يحب أن يأتى إليه من خير ، وإن كان الخير آتيا لهم منه  
أم من غيره ، وأن يكره أن يأتى إليهم الشر الذى يكرهه لنفسه ، سواء  
أكان الشر منه أم من غيره ، فليس المراد أن يقف حبه أو كرهه لئلا يأتى  
الناس عند حد الممانعة لما يأتى منهم ، بل المراد أن يتجاوز تلك الممانعة  
فيشمل كل خير (بحسب) أن يأتى له من أى جهة كانت ، وكل شر يجب أن  
يمنع عنه من أى جهة كانت ، وهذا المعنى يجليه الحديث الآخر  
الذى ذكرناه : ( لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ) ،  
ولو ذكر الفاعل فقيل : وليأت إلى الناس الذى يحب أن يأتوا إليه ،  
لضع هذا المعنى ، إذ يقف عندئذ حبه وكرهه لهم عند حد الممانعة ،  
لا يتجاوزها إلى ما ذكرناه .

( ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده ، وثمره قلبه ، فليطامه  
إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر ) .  
يتناول هذا الجزء من الحديث الشريف بيان ما يجب على  
المسلمين تجاه بيعة الإمام ، من وفاء بها ، وطاعة للإمام فى غير  
معصية الله تعالى ، والدفاع عنه والقتال دونه إن جاء آخر ينازعه  
الإمامة ..

وتنكير الإمام فى قوله - ﷺ - : ( ومن بايع إماما .. ) يشعر  
بأن طاعة الإمام واجبة ، أيا كان وضوح ذلك للإمام ، ومهما كانت  
منزلته وصفته ، ولذا رأينا - ﷺ - فى مواضع كثيرة من أحاديثه ينادى  
إلى ذلك ، ويوجب السمع والطاعة للإمام ولو كان عبدا حبشيا ، يقول  
- ﷺ - : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم  
( م ١١ - بلاغة تطبيقية )

عبد حبشى « (١٠) ٠٠٠ ويقول - ﷺ - « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » (١١) .

وقوله - ﷺ - : ( فاعطاه صفقة يده ، وثمره قلبه ) ، بيان للبيعة ، وكانت عادة العرب إذا وجب البيع أن يضرب أحدهما على يد صاحبه ، فالصفقة : ضرب اليد على اليد ، ثم استعملت في العقد ، فقيل : بارك الله فى صفقة يمينك . .

فالتعبير ( أعطاه صفقة يده ) كناية عن إتمام البيعة ، والتعبير بالثمره وإضافتها إلى القلب ، فى قوله : ( ثمره قلبه ) يدل على وجوب الإخلاص فى البيعة ، وترك الغش والخديعة ، وإطلاق الثمره على العمل الخالص ، النابع من القلب ، استعارة تصريحية ، وهذا ينبىء بأن الإخلاص ينفذ صاحبه ويفيده ، فهو ثمره تجنى وتقطف ، كما ينتفع المرء بثمار الأشجار والنخيل والأعناب . .

وفى قوله - ﷺ - : ( فليطعه إن استطاع ) حذف جواب الشرط ودل عليه الأمر قبله ، والتقدير : فإن استطاع أن يطيعه فليطعه ، وهذا الحذف يشعر بأن طاعة الإمام من الأمور التى تستثقلها النفس ، وتنزع إلى مخالفتها ، كما يدل على ذلك التعبير بالأداة ( إن ) دون ( إذا ) فإن الشرط وهو ( استطاع ) ينبغى أن يكون واقعا ومحققا ، ومعبرا عنه بإذا ، ولكن نظرا لاستثقال النفس تلك الطاعة ، ونزوعها إلى المخالفة عبر بالأداة ( إن ) . .

ولذا أوجب - ﷺ - السمع والطاعة للإمام فيما نحبه وفيما

(١٠) رواه أبو داود والترمذى .

(١١) رواه البخارى : ٠٠٠ والزبيبة بفتح الزاى وكسر الباء : قرحة تخرج فى اليد كالعرفه ، ونكتة سوداء فوق عين الحية ، والمراد : وصفه بالسواد وصغر الرأس تحقيرا له .

نكرهه ، طالما أنه لا يأمر بمعصية ، يقول - ﷺ - : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » (١٢) .

وأمرنا بالصبر على ما نكره من الأمير ، ولا نخرج عليه وذلك حيث يقول - ﷺ - : « من كره من أميره شيئا فليصبر ، فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية » (١٣) .

أما التعبير بالأداة ( إن ) فى قوله - ﷺ - : ( فإن جاء آخر ينازعه ) فللدلالة على أن منازعة الإمام الذى بايعه الناس ، وأعطوه صفقة أيديهم ، وثمره قلوبهم ، ينبغى أن تكون من الأمور المستبعدة ، وألا يقبل عليها أحد ، أو يفكر فيها .

والأمر بضرب العنق فى قوله - ﷺ - ( فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر . . ) يدل على المبالغة فى الوفاء ببيعة الإمام ، والدفاع عنه ، ومنع الخروج عليه ، فهذا واجب على المسلمين ، وينبغى عليهم أن يبذلوا أقصى جهودهم فى الدفاع عن الإمام ، ولذا لم يقل - ﷺ - : ( فإن جاء آخر ينازعه فامنعوه ، أو فقاوموه ، وإنما قال : ( فاضربوا عنق الآخر . . ) .

ويشعر حرف الفاء فى قوله : ( فاضربوا عنق الآخر ) بوجود المبادرة وسرعة التصدى للخارجين على الإمام ، وعدم التوانى فى مقاومتهم ، ومنع خروجهم . .

• (١٢) رواه البخارى ومسلم

• (١٣) رواه البخارى ومسلم

وقد وضع الظاهر موضع الضمير فى قوله : ( فاضربوا عنق  
الآخِر ) إذ مقتضى الظاهر أن يقال : فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا  
عنقه ، وذلك منعا لتوهم غير المراد ، فإن التعبير بالضمير قد يوهم  
أن المسامور بضرب عنقه عند مجيء المنازع هو الإمام ، لا من جاء  
ينازعه ، فمنعا لهذا التوهم وجب إخراج الكلام على خلاف مقتضى  
الظاهر بوضع الاسم الظاهر ( الآخِر ) موضع الضمير . . والله تعالى  
أعلى وأعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



### القسم الثالث

#### نصوص من الشعر

- ١ - من قصيدة ( أبى ذؤيب الهذلى )  
« أمن المنون ورييها تتوجع »
- ٢ - من قصيدة ( عبدة بن الطبيب )  
« أبنى إن قد كبرت أورابنى بصرى .. »
- ٣ - من قصيدة ( الشنفرى الأزدي )  
« ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت »



( ١ )

من قصيدة أبا ذؤيب الهذلى فى رثاء بنييه :

أمن المنون وريبها تتوجع  
والدهر ليس بمعتب من يجزع  
قالت أميمة : ما لجسمك شاحبا  
منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع  
أم ما لجنبك لا يلائم مضجعا  
إلا أقض عليك ذاك المضجع  
فأجبتها : أما لجسمى أنه  
أودى بنى من البلاد فودعوا  
أودى بنى وأعقبونى غصة  
بعد الرقاد وعبرة لا تقلع  
سبقوا هوى وأعنقوا لهوهم  
فتخرموا ولكل جنب مصرع  
فغبرت بعدهم بعيش ناصب  
وإخال أنى لاحق مستتبع  
ولقد حرصت بأن أذافع عنهم  
فإذا المنية أقبلت لا تدفع  
وإذا المنية أنشبت أظفارها  
ألفيت كل تميمية لا تنفع  
فالعين بعدهم كأن حداقها  
سملت بشوك فهى عور تدمع  
حتى كانى للحواادث مروة  
بصفا المشرق كل يوم تقرع

وتجلى للشامتين أريهم  
أنى لريب الدهر لا أتضع  
والنفس راغبة إذا رغبتها  
وإذا ترد إلى قليل تقنع  
ولئن بهم فجع الزمان وريبه  
إنى بأهل مودتى لمفجع  
كم من جميع الشمل ملتئم القوى  
كانوا يعيش قبلنا فتصدعوا  
والدهر لا يبقى على حدثانه  
جون السراة له جدائد أربع  
صخب الشوارب لا يزال كأنه  
عبد لآل أبى ربيعة مسبع  
اكل الجميم وطاوعته سمحج  
مثل القناة وأزعلته الامرع  
بقرار قيعان سقاها وابل  
واه فأنجم برهنة لا يقلع  
فلبئس حيننا يعتلجن بروضه  
فيجد حيننا فى العلاج ويشمع  
حتى إذا جسررت مياه رزونه  
وبأى حين ملاوه تتقطع  
ذكر الورود بها وشاقى أمره  
شؤم وأقبل حينه يتتبع

هذه الأبيات من قصيدة طويلة لأبى ذؤيب الهذلى ، وهو شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، فأسلم وحسن إسلامه ، وقد مات فى خلافة عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وهو راجع من غزو الروم ، ودفن بالطريق (١) ٠٠

وهذه القصيدة قالها فى رثاء بنيه الخمسة الذين هلكوا جميعا فى عام واحد ، حيث أصابهم الطاعون ، وكانوا رجالا ، ولهم بأس ونجدة ، هاجروا إلى مصر ، فاصيبوا بالطاعون وهلكوا جميعا فى عام واحد ، فحزن عليهم ، وبكاهم بهذه القصيدة الرائعة (٢) ٠٠

وقد صور فى القصيدة آلامه وأحزانه ، واستطاع من خلال وصفه للحمار الوحشى والثور ، والبطل الفارس الكامل السلاح ، وتصويره لهلاك كل بعد أن كان يحيا حياة سعيدة ، استطاع أن يظهر لنا كيف يتغير الحال ، وكيف ينقلب الأمر من ضد إلى ضد فى سرعة خاطفة ، وفجأة بلا مقدمات ، وكأنه يتخذ من هذه الأنماط الثلاثة عزاء لنفسه ، وتسلية لها ، وحثا على الصبر والمصابرة ، فتلك طبيعة الحياة الدنيا ، وطبيعة الخلائق ، لا يبقى أحد على حدثان الدهر ، وفى تكراره لهذا المقطع : ( والدهر لا يبقى على حدثانة ) عند بداية حديثه عن كل من الحمار والثور والبطل ، وإيثار التعبير بكلمة ( حدثان ) وما تشعر به من دوران وتقلب واضطراب ، وعدم استقرار ، فى هذا ما يحدث على الصبر ، ويبدد الألم والحزن ، وتسلية وعزاء للنفس ، وكان أبى ذؤيب يلقي عليه بهومته وأحزانه ، ويجسد فيه متنفسا لها (٣) ٠

بدأ أبو ذؤيب قصيدته بهذا الاستفهام الإنكارى : أمن المنون وربها

(١) انظر المفضليات للضبى : ٤١٩ ٠

(٢) انظر شرح أشعار الهذليين للسكرى ج ١ ص ٣ ٠

(٣) ارجع إلى القصيدة كاملة فى المفضليات : ٤٢١ ٠

تتوجع ؟ وقد جرد من نفسه إنسانا على طريقتهم فى بدء قصائدهم  
أحيانا ، إذ يجرد الشاعر من نفسه شخصا أو شخصين ويخاطبهما  
موجها إليهما ما يريد من معان ، كما فى معلقة امرئ القيس :

قفنا نبك من ذكرى حبيب ومنزل  
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وكما فى بائئة ذى الرمة :

ما بال عينك منها الماء ينسكب  
كأنه من كلى مفرية سرب

وكما فى قول الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل  
وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وقول المتنبي :

لا خيل عندك تهديها ولا مال

فليسعد النطق إن لم يسعد الحال (٤)

جرد أبو ذؤيب من نفسه شخصا وسأله منكرًا توجعه من ريب  
النية وفجائعتها : أمن المنون ورببها تتوجع ؟ لا ينبغى أن يكون ذلك  
التوجع ، لأن الدهر لا يعتب أحدا جزع من مصائبه ، فيراجع ويرد  
إليه ما يحب ، ويذهب عنه ما أتى به من فجائع ومصائب ، ولذا  
لا ينبغى التوجع من ريب المنون ...

(٤) التجريد : هو أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله فى تلك  
الصفة مبالغة فى كمالها فيه ، كقولهم : لى من فلان صديق  
حميم ، لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد ، ولئن سألته لتسألن  
به البحر ، وهو فن من فنون البديع ، وله صور عديدة إحداها  
مخاطبة الإنسان نفسه ، كما رأينا فى الأبيات المذكورة ...  
وارجع إلى كتابنا : علم البديع ج ٢ ص ٧٩ لتقف على صور  
التجريد ومزاياها البلاغية .

وقد تخير أبو ذؤيب من الألفاظ ما يدل على حزنه الشديد لموت  
بنيه ، وعلى تغير حاله من بعدهم ، تأمل الألفاظ : ( ابتذلت ...  
أقض عليك ذاك المضجع .. غصة .. عبرة لا تقلع .. تخرموا ..  
غبرت بعدهم .. ) ، فهذه الألفاظ تبني بمدى حزنه ، وتغير حاله  
بعد هلاك أبنائه ..

وقد تساعل متعجبا وأجرى سؤال التعجب على لسان أميمة ، وأطال  
فيه ليصور حاله ، ويكشف عما ألم به : ( ما لجسمك شاحبا منذ  
ابتذلت ؟ أم ما لجنبك لا يلائم مضجعا إلا أقض عليك ذلك المضجع ؟ ..  
ثم أرخى لنفسه العنان وأفاض في الإجابة مبرزاً أسباب آلامه ، وكاشفاً عن  
كوامن أحزانه ...

وقد امتلأت الأبيات بالصور البيانية ، والتراكيب والأبنية ،  
التي تكشف عن حالة أبي ذؤيب ، وتجلي همومه وآلامه ، فتتكير  
( غصة ، وعبرة ) في قوله :

### أودى بنى وأعقبونى غصة

#### بعد الرقاد وعبرة لا تقلع

يدل على التعظيم والتهويل ، ولذا وصف العبرة بقوله ( لا تقلع )  
فهى تستمر به ولا تفارقه لشدتها وعظمتها ، ومعنى الغصة : ما ينشب  
فى الحلق مما لا يساغ ، ويتوقف فيه فلا يدخل ولا يخرج ، قال  
تعالى : « إن لدينا أنكالا وجحيما • وطعاما ذا غصة وعذابا  
اليمما » ( ٥ ) .

وإسناد ( ناصب ) إلى الضمير العائد إلى العيش فى قوله :

فغبرت بعدهم بعيش ناصب

وإخال أنى لاحق مستتبِع

إسناد مجازى ، حيث أسند اسم الفاعل إلى مفعوله ، كما فى قوله تعالى : « فأما من ثقلت موازينه • فهو فى عيشة راضية » (٦) ، فالعيش لا يرضى ولا ينصب ، وإنما صاحبه هو الذى يرضى به ، أو ينصب فيه ، أى : يشقى ويشتد عليه أمره فقد أفاد التجوز كمال المبالغة فى رضا المؤمنين الذين ثقلت موازينهم بنعيم الجنات ، كما أفاد فى البيت كمال المبالغة فى شقاء أبى ذؤيب ، وشدة نصبه فى عيشه بعد هلاك بنيه ، ولذا أثر التعبير عن لبثه وبقائه بعدهم بقوله : ( غبرت ) أى : بقيت ومكثت ، فلفظ ( غبرت ) ينبىء بالأسى والحزن والعبوس ، قال تعالى : « ووجوه يومئذ عليها غبرة • ترهقها غبرة • أولئك هم الكفرة الفجرة » (٧) وكان أبو ذؤيب حريصا على الدفاع عن ابنائه ، ومنع الأذى عنهم ، ولكن المنية تخرمتهم ، وأنى للمنية أن تدفع :

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم

فإذا المنية أقبلت لا تدفع

إنها سبع فاتك ، إذا أنشب أظفاره قضى على فريسته ، ولا شىء يذفع فى دفعه ، وإنقاذ فريسته من بين برائنه ، وقد أبدع فى تصوير هذا المعنى حين قال :

وإذا المنية أنشبت أظفارها

أفيت كل تميمة لا تنفع

ولا يخلو كتاب من كتب البلاغة من الاستشهاد بهذا البيت للاستعارة المكنية ، حيث شبهت المنية بالسبع الفاتك ، ثم حذف المشبه به ورمز له بشىء من لوازمه وهو الأظفار ، وإضافة الأظفار إلى المنية استعارة تخيلية ، وهى قرينة الاستعارة المكنية ..

(٦) القارعة : ٦ ، ٧ .

(٧) عبس : ٤٠ - ٤٢ .

صور أبو ذؤيب المنية التي تخطفت أبناءه في صرورة مخيفة لا يتأتى دفعها ، ولا ينفع معها تميمة ، فقد جعلها سبعا مخيفا ، وجعل لها أظفارا تشبها في فريستها ، فلا الفريسة تستطيع المقاومة ، ولا أحد يستطيع أن ينجيها ، ولذا كان هلاكهم كأنه هوى لهم قد اعتنقوه ، وتسابقوا إليه ، وخالفوا ما كان يهواه أبوهم ، وهذا معنى قوله :

سبقوا هوى وأعتقوا لهواهم

### فتخرموا ولكل جنب مصرع (٨)

جعل هلاكهم هوى هووه ، فتسابقوا إليه ، وهذا يشعر بسرعة هلاكهم ، وشدة اختطافهم ، وهم لم يهروا الموت حقيقة ، وإنما هذا تمثيل لسرعة اختطافهم ، ففي البيت استعارة تمثيلية ، حيث مثل تخرم المنية إياهم وسرعة اختطاف الموت لهم بحال من تنافسوا في شيء هووه واعتنقوه ، فسابقوا إليه ، تاركين ما عداه .

ومما يصور سرعة الأخذ ببناء الفعل للمفعول في قوله ( فتخرموا ) وكأن قوة خارقة قد اختطفتهم فأودت بهم ، ونحوه قول الله عز وجل : « فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين » (٩) .

فحذف الفاعل وبناء الفعل للمفعول في قوله : ( فغلبوا ... وألقى ) يصور سرعة الغلبة والإلقاء ، وكأن يد القدرة قد

---

(٨) هوى بفتح الواو وتشديد الياء : اسم مقصور مضاف إلى ياء المتكلم ، وهذه لغة هذيل ، يقولون في نحو : هوى وعصاي وتقاي : هوى وعصى وتقى .  
(٩) الأعراف : ١١٩ ، ١٢٠ .

القتهم سجدا ، وحققت الغلبة لموسى عليهم فى سرعة خاطفة ،  
ووراء حذف الفاعل فى قوله ( فغلبوا ) سر آخر وهو الا  
يتوهم أن لموسى - عليه السلام - دخلا فى غلبتهم ، لو قيل  
مثلا : فغلبهم موسى ( ١٠ ) .

ثم وصف حالته بعد فراقهم ، وملازمة البكاء له ، وتتابع  
الحوادث والشدائد عليه ، فقال :

فالعين بعدهم كأن حداقها

سملت بشوك فهى عور تدمع

حتى كأنى للحوادث مروة

بصفا المشرق كل يوم تفرع

يصور كثرة بكائه وتتابعه ، فيصف عينيه والدموع تتوالى  
منهما دون انقطاع ، كأن حدقتيهما قد فقئتَا بشوك فأصابهما  
العور ، فأخذ الماء ينسكب منهما دائما ، وقد بالغ فى وصف  
العينين ، حيث جعل السمل ( الفقع ) للحدقتين وما حولهما ،  
فقال : ( كأن حداقها ) .

كما قالوا : امرأة حسنة اللبات ، وإنما لها لبة واحدة ،  
رجل ذو مناكب ، وهما منكبان ، وجمل غليظ المشافر وهما  
مشفران ، وقد أرادوا بالجمع المبالغة فى وصف اللبة والمنكبين  
والمشفرين ، والدلالة على حسن اللبة وجمالها ، وعلى عظم المنكبين  
والمشفرين وضخامتتهما ( ١١ ) .

---

( ١٠ ) ارجع إلى كتابنا علم المعانى ج ١ ص ١٠٣ .  
( ١١ ) اللبة هى وسط الصدر والمنحر ، وعندما بالغوا فى حسن اللبة  
وجمالها فقالوا : ( إنها لحسنة اللبات ) كأنهم جعلوا كل جزء  
منهما لبة ، ثم جمعوا على هذا .. انظر لسان العرب مادة  
( لبب ) .

ولما بالغ فى وصف إصابة العينين ، جعل الدمع ينسكب  
منهما دون انقطاع ، ودل على ذلك بالتعبير بالفعل المضارع الذى  
يفيد التجدد الاستمرارى ( فهى عور تدمع ) ووراء كثرة البكاء  
وتتابعه تمكن الآلام والأحزان ..

ثم يصور فى البيت الثانى تتابع الحوادث وتوالى الشدائد  
عليه ، فيشبه نفسه بالمروة التى تقرع كل يوم بمرور الناس  
عليها ، وقد آثر التعبير بالمشرق وهو المصلى ، لكثرة مرور  
الناس به ( ١٣ ) .

والتعبير بالقرع فى قوله : ( كل يوم تقرع ) يصور شدة  
المصائب وشدة وقعها عليه ، كما يدل المضارع على تجدها  
واستمرارها ، وهم يقولون : ( قرعت مروة فلان ) إذا أصابته  
مصيبة تشق عليه ..

ثم ذكر أن هذه الآلام وتلك الأحزان لا تظهر عليه ، لأنه  
يتجلد ويتصبر حتى لا يشمت الشامتون :

وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع  
وانتقل بعد ذلك إلى ذكر أنماط كانت من القوة بمكان ،  
تحيا حياة سعيدة ، وفجأة يتعكر صفوها ، لأن الدهر لا يبقى  
على حدثانه شئ ، بل تمتد الحوادث والشدائد والمصائب  
لتهلك كل قوى ، وتقضى على كل شجاع .

فذاك حمار جون السراة ، أى : أسود الظهر ، قوى

---

( ١٢ ) المروة جمعها : مرو ، وهى الحجارة البيض الصغيرة ملء  
الكف يقدح منها النار ، والصفاء : الصخرة العريضة ، والمشرق :  
المصلى .

صخب الشوارب ، يشبهه فى قوته عبد لآل أبى ربيعة ، قد أهمل مع السباع فصار كأنه سبغ لخبثه وقوته ، أو هو عبد قوى شديد الصوت ، قد وقع السباع فى غنمه فأخذ يصيح ، ذلك الحمار قوى يشبه هذا العبد ، ويكثر من النهيق « صخب الشوارب » ومعها أتان أربع قد طاوعته ، وهى طويلة ( سمحج ) مثل القناة ، وقد أكل اللبث الذى كثر فصار كأنه جمه ( أكل الجميم ) فصار نشيطا ، حيث ( أزعلته الأمرع ) أى : جعلته نشيطا قويا .

وقر الماء فى قيعان فى ذلك المكان ، حيث نزل وابل فأجم وثبت ولم يقلع ، وأخذت الأتان تمرح فى هذا الروض ، ويعض بعضها بعضا ، وتجرى هنا وهناك ، كل ذلك من فرط النشاط .

ويعد حين جزرت مياه رزونه ، أى : غارت مياه المطر من أماكنها ، فأخذ الحمار يتذكر العيون القديمة ، التى كان يرددها قبل نزول الواابل وتجمعه فى هذا المكان ، الذى رتع فيه مع أتانه زمنا ، انتهى زمن الرخاء بغور الماء ، وحل شقاء الحمار مع أتانه ، فشاقى أمره شؤم ، وأقبل حينه يتتبع . .

واستمر أبو ذؤيب يصف شقاء الحمار مع أتانه ، وهو يبحث عن عيون الماء القديمة ، وأبدع فى تصوير ذلك أيما إبداع ، حتى صور هلاك الحمار وأتانه على يد قانص متلبب ، أبدهن حتوفهن ، وانتقل إلى الثور ، ثم إلى البطل المقنع ، المستشعر نطق الحديد ، وهو يهدف من وراء وصف هذه الأجناس ، وتصوير ما حدث لها ، تسلية النفس ، وحثها على الصبر عند الشدائد ، فإن الدهر لا يبقى على حدثانه أحد . .

من قصيدة عبدة بن الطبيب ينصح أبناءه :  
أبنى إنى قد كبرت ورابنى  
بصرى وفى لمصلح مستمتع  
فلئن هلكت لقد بنيت مساعيا  
تبقى لكم منها مآثر أربع  
ذكر إذا ذكر الكرام يزينكم  
ووراثة الحسب المقدم تنفع  
ومقام أيام لهن فضيلة  
عند الحفيظة والمجامع تجمع  
ولهى من الكسب الذى يغنيكم  
يوما إذا احتضر النفوس المطمع  
ونصيحة فى الصدر صادرة لكم  
مادمت أبصر فى الرجال وأسمع  
أوصيكم بتقى الإله فإنه  
يعطى الرغائب من يشاء ويمنع  
وببر والدكم وطاعة أمره  
إن الأبر من البنين الأَطْوَع  
إن الكبير إذا عصاه أهله  
ضاقت يدها بأمره ما يصنع  
ودعوا الضغينة لا تكن من شأنكم  
إن الضغائن للقرابة توضع  
واعصوا الذى يزجى النمائم بينكم

متنصحا ذاك السمام المنتقع

يزجى عقاربه ليعث بينكم  
حربا كما بعث العروق الأخدع

حمران لا يشفى غليل فؤاده  
عسل بماء فى الإناء مشعشع

لا نأمنوا قوما يشب صبيهم  
بين القوابل بالعداوة ينشع

فضلت عداوتهم على أحلامهم  
وأبت ضباب صدورهم لا تنزع

قوم إذا دمس الظلام عليهم  
حدجوا قنافذ بالنميمة تمزع

أمثال زيد حين أفسد رهطه  
حتى تشتت أمرهم فتصدعوا

إن الذين ترونهم إخوانكم  
يشفى عليه صدورهم أن تصرعوا

\* \* \*

عبدة بن الطبيب شاعر مخضرم ، أدرك الإسلام فأسلم ،  
وكان يترفع عن الهجاء ويراه ضعة ، ويرى تركه مروءة وشرفا ،  
وهو صاحب أرثى بيت قالته العرب ، ألا وهو :

وما كان قيس هللكه هلك واحد

ولكنه بنيان قوم تهدما

والبيت من قصيدة له فى رثاء قيس بن عاصم المنقرى التميمى ،  
قال أبو عمرو بن العلاء : هذا البيت أرثى بيت قيل ، وقال  
ابن الأعرابى : هو قائم بنفسه ماله نظير فى الجاهلية ولا فى  
الإسلام (١٣) ٠٠

تقدمت به العمر ، وأصابه الكبر ، ووجه إليهم تلك النصائح  
التي اشتملت عليها أبيات القصيدة ..

وقد بدأ قصيدته بنداء الأبناء :

أبنى إني قد كبرت وربنى

بصرى وفى لمصلح مستمتع

والنداء تنبيه وإيقاظ ، ثم أضافهم إليه ( بنى ) وتلك الإضافة  
تنبيه بحبه وعطفه ، ثم ذكر ما يضاعف من الانتباه ، ويزيد من  
الإيقاظ ( إني قد كبرت ، وربنى بصرى ) يقال : رابه الشيء  
إذا تيقن منه الريبة ، وأرابه إذا شك فيه ، فعبدة قد تيقن  
الريبة ، وظهر ضعف بصره ، ووهن عظمه ، وقوى رأيه ، حيث أصقلته  
التجارب ، ولذا هتف معلنا : ( وفى لمصلح مستمتع ) ..

ومراد عبدة من هذا الإيقاظ أن يهيبء الأبناء لتلقى ما سيسديه  
إليهم من نصائح ، ولم يكتف بما ذكره من تنبيهه فى البيت  
الأول ، بل أكد بالقسم فى البيت الثانى :

فلئن هلكت لقد بنيت مساعيا

تبقى لكم منها مائر أربع

فاللام موطئة للقسم ، والمعنى : فوالله إن هلكت لقد بنيت  
مساعيا ، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه ،  
وفى قوله : ( بنيت مساعيا ) استعارة مكنية ، حيث شبه المساعى  
بالبناء العظيم ثم حذف المشبه به ورمز له بلازمه وهو بنيت ،  
وأضاف هذا اللازم إلى المساعى تخييلا ، وهذا التخييل هو  
قرينة الاستعارة المكنية ، وقد سموه استعارة تخيلية ... ولا يخفى  
عليك أن هذا التصوير قد جسد المساعى ، وأبرزها فى معرض  
المشاهد المحس . . . وتنكير ( مساعيا ) للدلالة على التعظيم  
والتفخيم ، فهى مساع عظيمة ، ولذا وصفها بالبقاء ( تبقى

لكم ) وكذا القول في تنكير ( مآثر ) ثم ذكر العدد بعدها على طريقة ( التوشيح ) وهو نوع من أنواع الإطناب ، حيث يُذكر العدد مثنىً أو جمعاً ثم يفسر ، كما في قوله - ﷺ - « اثنتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » .  
وقول ابن وهب :

### ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها

شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

ففي ذكر العدد إبهام فسر ووضح بما بعده ، وللإيضاح بعد الإبهام أثر في تمكين المعنى في النفس ، إذ الإبهام يجعل النفس تتطلع وتشتاق إلى البيان والإيضاح ، وعندما يأتى الإيضاح والبيان بعد ذلك يتمكن في النفس فضل تمكن ، ويستقر في أعماقها ..

فعبدة يذكر أنه بنى مساعيا تبقى لأبنائه ، منها مآثر أربع ، ثم فصل هذه المآثر الأربع في الأبيات التالية :

ذكر إذا ذكر الكرام يزينكم

ووراثية الحساب المقدم تنفع

ومقام أيام لهن فضيلة

عند الحفيظة والمجامع تجمع

ولهى من الكسب الذى يغنيكم

يوما إذا احتصر النفوس المطمع

ونصيحة فى الصدر صادرة لكم

مادمت أبصر فى الرجال وأسمع (١٤)

(١٤) الذكر : الشرف والصيت ، والمقام بفتح الميم : القيام بالصلاح فى الخصومة ، أو القيام فى الخطبة ، أو القيام بقضاء حوائج

تنكير ( ذكر ، ومقام أيام ، ونصيحة ) يدل على التعظيم ،  
أما تنكير ( لهى ) فأرى أنه للدلالة على التحقير والتقليل ،  
ولذا وصف الذكر بقوله ( يزينكم إذا ذكر الكرام ) ووصف  
( مقام أيام ) بقوله : ( لهن فضيلة عند الحفيظة ) ووصف  
النصيحة بأنها فى الصدر ، وأما اللهى فقد وصفها بقوله ( من  
الكسب الذى يغنيكم يوما ) وهذا ينبىء بما كان عليه عبدة  
من إيمان وخلق ، وحرص على كسب الفضائل ، وترك الرذائل ،  
ولذا ترفع عن الهجاء - كما ذكرنا - ولم يخفل بجمع المال ،  
وإنما حصل منه ( لهى ) تغنى عند الطمع وتغير الناس ..  
ولذا أيضا صور الطمع فى صورة قبيحة كريهة مخيفة ،  
ينبغى أن تقاوم وتحارب ، فقد صوره عدوا أحاط بالنفوس  
وحاصرها وعلى النفوس أن تقاومه وتحاربه ، ففى قوله ( احتصر  
النفوس المطمع ) استعارة مكنية ، حيث شبه المطمع بعدو قد  
حاصر النفوس وأحاط بها ، ثم حذف المشبه به وهو ( العدو )  
ورمز له بلازم من لوازمه وهو ( حصر ) وأثبت هذا اللازم للمشبه  
( المطمع ) على سبيل الاستعارة التخيلية ، وهذه التخيلية هى  
قرينة الاستعارة المكنية ..

وبعد التوشيح الذى اختتمه عبدة بقوله : ( ونصيحة فى  
الصدر ) أخذ يوصيهم ، ويسدى إليهم نصائحه ، فأوصاهم بتقوى  
الله ، وببر والدهم وطاعة أمره ، وبصلة القرابة ، والتخلى

---

الناس ونحو ذلك ، والحفيظة : الغضب ، واللهى : بضم  
اللام : العطايا ، مفردها : لهوة ، وأصلها : الحفنة من الطعام  
تطرح فى الرحى ، والمراد بها : ما خلفه لهم من مال ،  
واحتصر النفوس المطمع : أحاط بها ..

عن الضغينة لأنها سرعان ما تتفشى وتنتشر بين القرابة ، وعندئذ تضعها ، وتضع معها الود والحب والنفع وغير ذلك مما يكون بين القرابة ، ثم حذرهم من العدو الذى يتظاهر بالنصح ويخفى عداوته ..

ومما يلاحظ أنه قد أطال فى تحذيره من العدو المتنصح ، الذى يتظاهر بالنصح ، وأوجز إيجازا فيما قبله ، ولعل ذلك يرجع إلى أن عبدة قد أحسن تربية أبنائه ونشأهم على مبادئ الدين وخلق الإسلام ، فهم يتقون الله ويبرون الوالدين ، ويصلون الرحم ، ولا يحتاجون فى مثل هذا إلا إلى مجرد التذكير ، أما العدو الذى يزجى النمائم والعقارب ، ويتظاهر بالنصح ، فهذا ما يحتاجون إلى التحذير منه ، والكشف عن خداعه وأضراره ولذا أطال عبدة فى وصفه لهم ، وتصوير ضرره ، والكشف عن مكره وخداعه ..  
ولنتأمل الأبيات :

واعصوا الذى يزجى النمائم بينكم

متنصحا ذاك السمام المنقوع

يزجى عقاربه لبيعث بينكم

حربا كما بعث العروق الأخدع

حران لا يشفى غليل فؤاده

عسل بماء فى الإناء مشعشع (١٥)

---

(١٥) يزجى : يسوق ، والمتنصح : الذى يتشبه بالنصحاء ، والسمام : مفردا سم ، والمنقع : المعتقد من قولهم : أنقع السم : عتقه ، والأخدع : عرق فى العنق إذا ضرب أجابته العروق . والغلة : شدة العطش ، والمراد : الذى يتلهب جوفه من شدة الغيظ ، والمشعشع : المزوج ..

فذاك المتنصح يزجى النمام ، ويزجى عقاربه ، ويبعث  
الحرب بينكم والعداوة كما يبعث الأخدع العروق ، وهو السم  
المنقع ، قد امتلا فؤاده غيظا ، فهو حران لا يشفى غليل  
فؤاده إلا أن تشتعل نار العداوة بينكم ..

الصور البيانية قد ازدحمت فى الأبيات لتبرز حقيقة ذلك  
المتنصح وتكشف عن ضرره ، ففى قوله : « يزجى النمام ...  
يزجى عقاربه » استعارتان مكنيتان ، حيث شبهت النمام والعقارب  
بما يزجى ، ثم حذف المشبه به ، وأسند لازمه للمشبه ،  
والاستعارتان تكشفان عن حقيقة المتنصح ، فهو يسوق إليهم ، وليت  
ما يسوقه خير أو نفع ، كلا إنه يسوق أذى ، يسوق نمام  
وعقارب تبعث بينهم العداوة والبغضاء .

وفى قوله : « ذاك السمام ... ليبعث بينكم حربا كما بعث  
العروق الأخدع » تشبيهان ، الأول تشبيه بليغ ، حيث نبت أدواته  
ووجهه ، حيث شبه المتنصح بالسم المنقع فى الإهلاك والضرر ،  
والثانى تشبيه مركب ، حيث شبهت هيئة المتنصح ، وهو يسوق  
عقاربه ونمامه ليبعث بينهم الحرب والعداوة ، بيئية الأخدع  
عندما يضرب فتستجيب له سائر العروق ..

ويستمر عبدة فى وصف أولئك المتنصحين فيذكر أنهم شبا  
على العداوة وسقوا إياها منذ أن استقبلتهم القوابل ، حيث وضع  
السعوط فى أنوفهم ، والوجور فى أفواههم ، فنشأوا على العداوة ،  
وزادت عداوتهم على أحلامهم ، وتأصل الحقد فى صدورهم ، وهذا  
ما نراه فى قوله :

لا تأمنوا قوما يشب صبيهم

بين القوابل بالعداوة ينشع

## فضلت عداوتهم على أحلامهم

وأبت ضباب صدورهم لا تنتزع (١٦)

فالببت الأول كناية عن تنشئتهم على العداوة ، والثانى كناية عن تأصل الأحقاد فى صدورهم ، فهى لا تنتزع .. وقد أستعيرت الضباب للأحقاد التى تملأ صدورهم ، وتدل هذه الاستعارة على تغلغل الأحقاد وتشعبها فى الصدور ، وصعوبة انتزاعها منها ، كما يصعب صيد الضب والتمكن منه فى جحره ..

وهم لا ينامون ليلهم ، بل إذا حل الظلام نشطوا بالنميمة ،

فهم :

قوم إذا دمس الظلام عليهم

حدجوا قنافذ بالنميمة تمزج

أمثال زيد حين أفسد رهطه

حتى تشتت أمرهم قنصدعوا (١٧)

---

(١٦) القوابل : مفردها قابلة ، وهى التى تستقبل المولود ، وينشع من النشوع : ويقال له أيضا : نشوغ ، وهو السعوط الذى يوضع فى الأنف ، والوجور : ما يوضع فى الفم . يقال : ينشع الصبى والمرىض ويهجران أى : يوضع السعوط فى أنفهما ، والوجور فى فمهما ، ويقال فلان منشوع بكذا أى : مولع به ، كأنه قد ربى عليه .

وفضلت بكسر الضاد : زادت ، والضباب بكسر الضاد مفردها : ضب ، والمراد بها : الأحقاد فى صدورهم ..

(١٧) دمس الظلام : ألبس واشتدت ظلمته ، وحدجوا : وضعوا الحدج - بكسر الحاء وسكون الدال - على البعير كى يرحلوا ، والحدج : مركب من مراكب النساء ، وتمزج : تمر مرورا سريعا ، يقال : مزع الفرس مزعا إذا أسرع .

والمراد بزيد : زيد بن مالك بن حنظلة بن مالك الأكبر ، وكان المنذر قد خطب لرجل من أصحابه باليمن امرأة من بنى زيد ، فأبوا أن يزوجه ، فنفاهم وفرقهم ..

شبههم بالقنفذ عندما يشتد الظلام عليهم ، فهم لا ينامون ، بل يسهرون بالنميمة والاحتتيال للشر ، وكذلك القنفذ يظل ليله أجمع يسير ولا ينام ، ومراد عبدة من التشبيه بزيد فى البيت الثانى أن يحث أبناءه على الاستجابة وقبول النصيحة ، والתיقظ والتنبه لما يدبره أعداؤهم من الأذى والشر ، فهو يريد أن يقول : إن ما أخبركم به حق وصدق ، وخبر يقين ، كصدق هذه القصة ، قصة زيد ورهطه ، وأنتم تعلمونها .. أو يريد : لا ترفضوا نصيحتى ، وتنصرفوا عنها ، وتغفلوا عما يدبره الأعداء لكم ، فتكونوا فى الحمق والجهل مثل هذا الرجل الذى بدد قومه ..

أو يريد : لا تأمنوا عدوكم وتغتروا وتخدعوا بما يقوله لكم ، ويدعيه من النصح ، فتغفلوا عن مكانته ، وما يدبره لكم فى الخفاء : حتى يبدد شملكم ويفرقكم ، كما فرق بنو زيد ..

ويختتم عبدة نصائحه بقوله :

إن الذين ترونهم إخوانكم

يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا

ينبهم إلى الخطأ ، فإن الذين يعتقدون أنهم إخوان لهم ، مأمهم إلا أعداء تتوقد صدورهم حقدا ، ولا يشفى غليل صدورهم إلا أن يصرعوا ويهلكوا ، ولذا عبر بالاسم الموصول لتنبه جملة الصلة إلى خطأ المخاطبين فيما يرونه ، ومثله قول الله عز وجل : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » (١٨) فإن جملة الصلة ( تدعون من دون الله ) تفيد تنبيه المشركين إلى خطئهم فى عبادتهم غير الله تعالى ، فهم ليسوا إلا عبادا أمثالهم ..

هذا ونجد فى الأبيات العديد من الكنايات اللطيفة ، وفى البيت الأول قوله : ( إنى قد كبرت وربنى بصرى ) كناية عن الضعف والوهن ، وقوله : ( وفى لمصلح مستمتع ) كناية عن سداد نصحه وقوة رأيه .

وفى البيت الرابع قوله : ( والمجامع تجمع ) كناية عن شدة الأمر ، وفداحة الخطب ، وفى البيت التاسع قوله : ( ضاقت يداه بأمره ) كناية عن عجزه وانسداد السبل أمامه ..

وفى البيت الرابع عشر قوله : ( يشب صبيهم بين القوابل بالعداوة ينشع ) كناية عن التنشئة على العداوة والبغضاء ، وفى البيت الخامس عشر قوله : ( وأبت ضباب صدورهم لا تنزع ) كناية عن تأصل الحقد فى صدورهم ..



( ٣ )

قال الشنفرى الأزدي فى الغزل ووصف المرأة :

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت  
وما ودعت جيرانها إذ تولت  
وقد سبقنا) أم عمرو بأمرها  
وكانت باعناق المطى أظلت  
بعينى ما أمست فباتت فأصبحت  
فقضت أمورا فاستقلت فولت  
فوا كبدا على أميمة بعد ما  
طمعت فهبها نعمة العيش زلت  
فيا جارتى وأنت غير مليمة  
إذا ذكرت ولا بذات تقلت  
لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها  
إذا ما مشيت ولا بذات تلفت  
تببت بعيد النوم تهدى غبوقها  
لجارتها إذا الهدية قلت  
تحل بمنجاة من اللوم بيتها  
إذا ما بيوت بالمذمة حلت  
كان لها فى الأرض نسيا تقصه  
على أمها وإن تكلمك تلبت  
أميمة لا يخزى نثاها حليلها  
إذا ذكر النسوان عفت وجلت  
إذا هو أمسى أب قيرة عينه  
مأب السعيد لم يسيل أين ظلت

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت  
فلو جن إنسان من الحسن جنت  
فبتنا كأن البيت حجر فوقنا  
بريحانة ريحت عشاء وظلت  
بريحانة من بطن حلية نورت  
لها أرج ما حولها غير مسنت



الشنفرى شاعر جاهلى من بنى الحرث بن ربيعة ، والشنفرى اسمه ، وقيل : لقب له ، ومعناه عظيم الشفة ، وهو ابن أخت تأبط شرا ، وكان أحد لصوص العرب المغيرين ، وأحد العدائين الثلاثة : تأبط شرا والشنفرى وعمرو بن براق ، كانوا من العدائين الذين يعدون على أرجلهم ، فلا يدركهم الطلب ، ولا تلحقهم الخيل ، وقد ضرب المثل بالشنفرى فى العدو فليل : « أعدى من الشنفرى » (١) .

وهذه الأبيات من قصيدة له ، بدأها بالغزل والحديث عن المرأة وهى الأبيات التى بين أيدينا ، ثم أتبعها بوصف قوته وشدة بأسه ، ونعت سيفه ، وأشار إلى ثأره من قتل أبيه ، وفخر باستهانته بالحياة ، إلى آخر ما ذكر فى تلك القصيدة (٢) .

وقد أبدع الشنفرى فى حديثه عن المرأة فى هذه الأبيات ، والتنويه بمحاسنها ، والإشادة بأخلاقها ، وتسامى فى غزله ، فلم يهبط إلى

(١) انظر المفضليات : ١٠٨ ، ٢٧ .

(٢) ارجع إلى القصيدة كاملة فى المفضليات : ١٠٨ .

ذكر الصفات الحسية فى المرأة ، والكشف عن مفاتها ، على نحو ما رأينا فى كثير من الشعر الجاهلى ، بل ترفع عن ذلك ، واهتم بإبراز الصفات المعنوية كالحياء والعفة ، وإيجاز الحديث ، وكرمها لجاراتها ، ونفى الريبة عنها ، فإن أراد ذكر وصف من أوصافها الحسية أوما إليه إيماء ، على نحو ما سنرى فى الآيات ..

بدأ الشنفرى قصيدته بالتنويه بشأن أميمة ، فلم يذكرها باسمها بل بكنيها ( أم عمرو ) وذلك تعظيما لها ، ورفعاً من شأنها ، كما افتتح القصيدة بأداة التنبيه ( ألا ) وهى لا تستخدم إلا فى الأمور المهمة التى تحتاج إلى تنبيه وتوكيد ..

ثم أشاد بصفة محمودة فى المرأة ، وهى الكتمان وإخفاء شئونها بحيث لا يدرى بها أحد ، بل يفاجأ بها مفاجأة :

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت

وما ودعت جيرانها إذ تولت

وقد سبقتنا أم عمرو بأمرها

وكانت بأعناق المطى أظلت (٣)

فقد أجمعت أمرها ، وتولت مرتحلة ، وما ودعت جيرانها ، ولا أظلت أحدا على ما عزمت عليه ، بل استبدت واستأثرت به ، حتى كان رحيلها مفاجأة للجميع ، ولم يدر به أحد حتى أظلتهم بالإبل راحلة .

وفى قوله : ( بأعناق المطى ) مجاز مرسل علاقته الجزئية ،

---

(٣) : أجمعت : عزمت أمرها ، واستقلت : ارتحلت ، وسبقتنا بأمرها : استبدت واستأثرت به ، وكانت بأعناق المطى أظلت ، أى : فاجأتنا بالإبل حتى أظلتنا بها ..

حيث أطلق ( الأعناق ) وأراد : الإبل ، وإنما أثر التعبير عن الإبل بالأعناق ، لأنها مظهر حركتها ، فالإبل عندما تسرع فى السير تظهر حركتها تمام الظهور فى أعناقها ، ولذا قال كثير عزة فى وصف حركة الإبل عندما اشتد بها السير فى الصحراء :

ولما قضينا من منى كل حاجة  
ومسح بالأركان من هو ماسح  
وشدت على حدب المهارى رحالنا  
ولم يبصر الغادى الذى هو رائح  
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا  
وسالت بأعناق المطى الأباطح

فالمطى قد اشتد بها السير ، وسالت بها الأباطح ، وقد أثر كثير التعبير ( بالأعناق . ) حيث تظهر بها حركة الإبل عند إسراعها ظهورا تاما ، ولا يخفى عليك المجاز فى كلمة ( سالت ) حيث استعير السيلات للسير ، كما لا يخفى عليك التجوز فى إسناد السيلان إلى الأباطح (٤)

ويصف الشنفرى أسفه وتأله لسرعة رحيلها ، فيقول :  
بعينى ما أمست فباتت فأصبحت  
فقضت أمورا فاستقلت فولت  
فوا كبدا على أميمة بعد ما  
طمعت فهبها نعمة العيش زلت  
فيا جارتي وأنت غير مليمة  
إذا ذكرت ولا بذات تقلت (٥)

(٤) ارجع إلى هذه الأبيات فى كتابنا : دراسات بلاغية ٢٥ .  
(٥) بعينى : يأسف أن يرى رحيلها ولا حيلة له ، وزلت : ذهب ، من قولهم : زل عمره ، أى : ذهب ، ومليمة من قولهم : لام ، إذا أتى بما يلام عليه ، وتقلت : تبغضت ، والمعنى : ليست بذات صفة يقال لها من أجلها : تقلت فلانة ، أى : تبغضت .

فقوله ( بعينى ) يدل على مبلغ أساه وشدة ألمه ، وقد صور  
سرعة رحيلها وتوليها تصويرا عجيبا ( أمست فباتت فأصبحت فقضت  
أمورا فاستقلت فولت ) توالى الأحداث كلمح البصر ، فتلك الفاءات ،  
وهذه الأفعال : أمسى ، بات ، أصبح ، قضى أمورا ، استقل ، تولى ،  
تشعر بالسرعة الخاطفة ، وتدل على مدى قصر الزمن الذى رحلت  
خلاله أميمة .

وقد أخذت معها قلب الشنفرى ، فهو حزين متألم ( فوا كبدا على  
أميمة ) ، هذا التعبير يدل على حرقة قلبه ، وشدة ألمه ، ومثله  
قول المتنبى :

وا حر قلباه ممن قلبه شبيهم

ومن بجسمى وحالى عنده سقم

ويسمى هذا أسلوب الندبة ، وهو أن ينادى من أجل التوجع  
أو التفجع ، ولا يجد الشنفرى أمامه إلا أن يصبر ويتصبر ( فهبها  
نعمة العيش زلت ) ، ثم يناديها ( يا جارتى ) وكان استخدام هذا  
الحرف ( يا ) الموضوع لنداء البعيد يؤذن بارتحالها وابتعادها عنه ،  
وعلى الرغم من بعدها عنه ، فإنها قريبة إليه ، محببة إلى نفسه ،  
ولذا أضافها إليه فى قوله : ( يا جارتى ) ثم وصفها بهذين الوصفين :  
( غير مليمة ... ولا بذات نقلت ) ، فهى لا تأتى بما يلام عليه ،  
ولا يبغضها أحد ، لأنها لا تتصف إلا بكريم الصفات ، ولا تأتى عيبا ،  
ومن أجل ذلك حبيت إلى النفوس ، فلم يبغضها أحد .

ثم يزجى إليها فيضا من الكنايات التى تكشف عن أخلاقها ،  
وعظيم فعالها ، وذلك حيث يقول :

لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها

إذا ما مشت ولا بذات تلفت

تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها

لجاراتها إذا الهدية قلت

تحل بمنجاة من اللوم بيتها

إذا ما بيوت بالمذمة حلت (٦)

كنى عن شدة حياؤها بقوله : ( لا سقوطا قناعها ) ، فهي عندما تمشى لا يسقط قناعها ، وهذا يدل على شدة الحياء ، ثم كنى عن نفي الريبة عنها بقوله : ( ولا بذات تلفت ) لأن التلفت من فعل أهل الريبة ، وكنى فى البيت الثانى بقوله : ( تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها ) عن الأثرة والكرم ، فهي تهدى الغبوق لجاراتها وتؤثرهن به على نفسها لشدة كرمها ، وقوله : ( إذا الهدية قلت ) كناية عن الجذب ، حيث تنفذ الأزواد ، وتذهب الألبان ، وفى هذا الوقت تهدى أميمة غبوقها ليلا لجاراتها ، وذا يدل على كمال الكرم والأثرة ..

وفى البيت الثالث أربع كنايات ، اثنتان عن صفة ، واثنتان عن نسبة ، فقد كنى عن صفة العفة بالنجاة من اللوم ، إذ النجاة من اللوم تستلزم النجاة من موجباته كالزنا والفواحش وذا يستلزم العفة ، وكنى عن نسبة العفة إليها بنسبتها إلى بيتها فى قوله : ( تحل بمنجاة من اللوم بيتها ) ، ثم كنى فى الشطر الثانى عن نفي العفة بحلول المذمة ، وعن نفي العفة عن أصحاب تلك البيوت بنفيها عن بيوتهم ( إذا ما بيوت بالمذمة حلت ) ..

---

(٦) الغبوق بفتح ( العين ) اللبن الذى يشرب بالعشى ، والفعل ( تحل ) بفتح التاء وضم الحاء مضارع ( حل ) ، وهو متعد بنفسه و ( بيتها ) مفعول به ، ويتعدى بالحرف فيقال : تحل فى بيتها ، وبالهمزة فيقال : ( تحل ) بضم التاء وكسر الحاء ، وقد روى البيت : يبيت بمنجاة من اللوم بيتها ، يرفع البيت على الفاعلية تجوزا فى الإسناد ..

ويضيف الشنفرى :

كَانَ لَهَا فِي الْأَرْضِ نَسِيًّا تَقْصَهُ

عَلَى أُمَّهَا وَإِنْ تَكَلَّمْتَ تَبَلَّتْ

أَمِيمَةً لَا يَخْزِي نَثَاها حَلِيلَهَا

إِذَا ذَكَرَ النِّسْوَانَ عَفَتْ وَجَلَّتْ

إِذَا هُوَ أَمَسَى أَبَ قَرَّةَ عَيْنِهِ

مَأَبَ السَّعِيدِ لَمْ يَسِلْ أَيْنَ ظَلَّتْ (٧)

يصور شدة حياؤها ، وأنها لا ترفع رأسها عن الأرض فى مسيرها ، فيشبهها فى ذلك بمن افتقد شيئا فهو يتبعه ويتعقب أثره ، وينظر فى الأرض بحثا عنه ، ثم يكنى عن إيجازها الحديث بقوله : ( وإن تكلمك تبلت ) ، والتعبير بأن يدل على ندرة تكلمها ، فهى شديدة الحياء ، إذا مشت لا ترفع رأسها عن الأرض فى مسيرها ، حتى ليظن من يراها أنها تبحث عن شىء ضاع منها ، وإن اعترضها شخص وكلمها ، أوجزت الحديث إيجازا ، ومضت لقصدها وغرضها ..

ثم كنى عن سمعتها الطيبة ، وسيرتها الحسنة على كل لسان بقوله : ( لا يخزى نثاها حليلها ) ، فحديثها العطر على كل لسان فى العشيرة يملا زوجها زهوا وفخرا ، ويجعله سعيدا قرير العين ، لأنها مثال العفة والجلال ، ( إذا ذكر النسوان عفت وجلت ) ،

---

(٧) النسي بكسر النون : الشىء المفقود المنسى ، وتقصه : تتبعه وتتعبق أثره ، وأمها بتشديد الميم : قصدها الذى تريده ، وتبلت بفتح التاء واللام : تنقطع فى كلامها لا تطيله ، والنثا بفتح النون : الحديث عن الشخص والإخبار عنه حسنا أو سيئا ، يقال : نثا الحديث والخبر أى : حدث به وأشاعه ، والحليل : الزوج ، وأب : رجع ..

( م ١٣ - بلاغة تطبيقية )

ثم كنى عن ملازمتها وقرارها فى البيت بقوله : ( لم يسلم أين ظلت )  
لأنها لا تبرح بيتها ولا تفارقه .

وبهذا يتضح لنا تسامى الشنفرى فى حديثه عن المرأة ، وترفعه  
عن الغزل الفاحش الذى يكشف عن مفاتها ، لقد سما بها وعلا إلى أعلى  
درجات العقبة والحسن وجمال الروح ، حتى قالوا : إن هذه الأبيات  
احسن ما قيل فى خفر النساء وعفتن . .

فلما أراد أن يتحدث عن جمالها الحسى أوما وأشار ، ولم يهبط  
إلى إبراز مفاتن المرأة ، والكشف عن هذا الجانب الحسى فيها ،  
ولننظر فى البيت :

### فدقت وجلت واسبكرت واكملت

فلو جن إنسان من الحسن جنت (٨)

فهو يريد : دق منها ما يستحسن دقته وعظم ما يستحسن عظمه .  
والذى يحسن أن يكون دقيقا وضامرا هو الخصر والبطن ، والذى يحسن  
أن يكون عظيما ضخما : الروادف والثدى . .

وفى هذا المعنى يقول الحماسى :

أبت الروادف والثدى لقمصها

مس الظهور وإن تمس بطونا .

وقال أبو تمام :

من الهيف لو أن الخلاخل صيرت

لها وشحا جالت عليها الخلاخل

(٨) اسبكرت : طالت وامتدت ، ومعنى ( جن ) : ذهب عقله : أو استتر  
وإختفى ، ويريد بذلك بلوغها الغاية فى الحسن والجمال . .

ويقول كعب بن زهير :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة

لا يشتكى قصر منها ولا طول

ولكن الشنفرى أوما إلى ذلك ولم يوضح ، وأوجز الحديث عنه :  
إيجازاً ( فدخلت وجلت واستكبرت وأكملت ) خلع عليها أسمى آيات الجمال  
الحسى دون أن يفصح عنه ، أو يبرزه فى صورة واضحة مكشوفة ..

ومعنى قوله : ( لو جن إنسان من الحسن جنت ) أنها بلغت  
الغاية فى الحسن والجمال ، ووصلت إلى حد ينبغى فيه الاستتار  
وإخفاء الحسن لكماله ، أو وصلت فيه إلى حد لو جن إنسان لوصوله  
إليه ، وذهب عقله لشدة حمسه لجنت ، وهذا يعنى بلوغها الغاية  
وحد الكمال فى الجمال والحسن ..

ثم يصور طيب رائحتها فيقول :

فبتنا كان البيت حجر فوقنا

بريحانة ريحت عشاء وطلت

بريحانة من بطن حلية نورت

لها أرج ما حولها غير مسنت (٩)

يشبه طيب رائحتها ويمثله بريحانة ، هذه الريحانة أصابتها ريح  
النسيم العليل عشاء ، واختار وقت العشاء لأنه أظهر لرائحة  
الرياحين ، كما أصابها الندى فاشتدت رائحتها ، وهى ريحانة من بطن  
حلية ، ذلك الوادى الذى يوجد فى حزن من الأرض ، ونبت الحزن

(٩) حجر فوقنا : أحيط وأغلق ، وريحت وطلت : أصابتها ريح النسيم  
العليل وأصابها الطل ، وحلية بفتح الحاء وسكون اللام : واد  
بتهامه وهو فى حزن : أى أرض مرتفعة ، ونبت الحزن أطيب  
ريحا من غيره ، والأرج : توهج الرائحة وانتشارها فى كل جانب ،  
والمسنت : المجدب ..

أطيب رائحة من غيره ، ثم هي ريحانة قد نورت ، وصار لها أرج  
انتشر في كل جانب ، وما حولها من الأرض خصب وغير مجذب ،  
والبيت قد حجر فوقهم ، وأحكم غلقه ، فتضاعفت الرائحة وتركزت ،  
وقويت واشتدت ..

ويريد الشنفرى بهذا التفصيل ، أن يكشف لنا عن طيب رائحة  
أميمة ، وأنها قد بلغت في طيب الرائحة مبلغا عظيما ، لم تبلغه  
غيرها ، وبهذا يكون قد جمع لها كل صنوف الحسن ، وألوان الجمال ،  
فقد وصفها بالأخلاق الرفيعة ، كالحياء والعفة والكرم والسيرة الطيبة ،  
وأطال في بيان ذلك وأبدع في تصويره وتجليته ، ثم أشار إلى  
جمالها الحسى ، وأنها قد بلغت في ذلك الغاية ، فلو جن إنسان من  
الحسن جنت ، واختتم حديثه بالإفاضة في تصوير طيب رائحتها ..

والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى  
آله وصحبه وسلم . تم بحمد الله تعالى في يوم الأربعاء ، الثانى عشر  
من شهر جمادى الآخرة سنة ١٤١٢ هـ ، الموافق الثامن عشر من شهر  
ديسمبر سنة ١٩٩١ م .

### المؤلف

بسيونى عبد الفتاح فيود  
الاستاذ المساعد فى جامعة الأزهر

## اهم المراجع

- ١ - أسرار البلاغة لعبد القاهر : ط : دار الطباعة المحمدية ١٣٩٢ هـ
- ٢ - الأصمعيات للأصمعي : ط : دار المعارف - ١٩٧٩ م .
- ٣ - الام للإمام الشافعي ، ط : بولاق - ١٣٢١ هـ .
- ٤ - الإيضاح : للخطيب القزويني ، ط : صبيح ، ١٣٩٢ هـ .
- ٥ - التصوير البياني للدكتور محمد أبو موسى :  
ط : دار التضامن - ١٩٨٠ م .
- ٦ - تفسير الطبري لابن جرير الطبري :  
ط : دار المعارف - ١٩٦٩ م .
- ٧ - تفسير الفخر الرازي : للإمام محمد الرازي :  
ط : دار الفكر ، ١٤٠١ هـ .
- ٨ - تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي :  
ط : الحلبي ، ١٣٧٣ هـ .
- ٩ - الجمان في تشبيهات القرآن لابن نايقيا :  
ط : منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٧٤ م .
- ١٠ - جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي :  
ط : جامعة الإمام ، ١٤٠١ هـ .
- ١١ - خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى :  
ط : دار التضامن ، ١٩٨٠ م .
- ١٢ - دراسات بلاغية للدكتور بسيوني فيود :  
ط : السعادة ، ١٩٨٩ م .
- ١٣ - دلائل الإعجاز لعبد القاهر ، ط : الفجالة ، ١٩٨٩ م .
- ١٤ - دلالات التراكيب للدكتور محمد أبو موسى :  
ط : دار المعلم ، ١٣٩٩ هـ .
- ١٥ - دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان :  
ط : الريان ، ١٤٠٧ هـ .
- ١٦ - روح المعاني للآلوسي :  
ط : دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ١٧ - سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي : ط : الخانجي ،

- ١٨ - شرح أشعار الهذليين للسكري : ط : المدنى .
- ١٩ - شروح التلخيص .
- ٢٠ - صحيح مسلم بشرح الإمام النووي :  
ط : دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٢١ - الصناعتين لأبى هلال العسكري : ط : الحلبي ، ١٩٧١ م .
- ٢٢ - الطراز للعلوى ، ط : المقتطف ، ١٣٣٢ هـ .
- ٢٣ - علم البيان للدكتور بدوى طبانة ، ط : المطبعة الفنية ، ١٩٧٧ م .
- ٢٤ - علم البيان للدكتور بسيونى فيود : ط : السعادة ، ١٩٨٨ م .
- ٢٥ - علم المعانى للدكتور بسيونى فيود : ط : السعادة ، ١٩٨٧ م .
- ٢٦ - علم البديع للدكتور بسيونى فيود : ط : السعادة ، ١٩٨٧ م .
- ٢٧ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى
- ٢٨ - الكشاف للزمخشري ، ط : الحلبي ، ١٣٩٨ هـ .
- ٢٩ - لسان العرب لابن منظور ، ط : دار المعارف .
- ٣٠ - المثل السائر لابن الاثير : ط : الحلبي .
- ٣١ - مجاز القرآن لأبى عبيدة ، ط : الخانجى .
- ٣٢ - المجازات النبوية للشريف الرضى : ط : الحلبي ، ١٣٥٦ هـ .
- ٣٣ - معانى القرآن للفرأ ، ط : الهيئة المصرية ، ١٩٨٠ م .
- ٣٤ - المطول : لسعد الدين التفتازانى .
- ٣٥ - مغنى اللبيب لابن هشام : ط : المدنى .
- ٣٦ - مفتاح العلوم للسكاكى : ط : الحلبي ، ١٣٥٦ هـ .
- ٣٧ - المفضليات للضبى : ط : دار المعارف .
- ٣٨ - الموطأ لأبى مالك : ط : الحلبي ، ١٣٧٠ هـ .
- ٣٩ - الموازنة للامدى : ط : دار المعارف ، ١٣٨٠ هـ .
- ٤٠ - النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز :  
ط : السعادة ، ١٣٨٩ هـ .
- ٤١ - نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازي :  
ط : الآداب ، ١٣١٧ هـ .
- ٤٢ - الوساطة بين المتنبي وخصومه لعلى بن عبد العزيز الجرجانى :  
ط : الحلبي .

## محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة .....

### القسم الأول

١١٩ - ٥	من هدى القرآن الكريم .....
٧	١ - الآيات من أول سورة البقرة الى الآية (٢٠) : .....
	٢ - الآيات من قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا
	الربا أضعافا مضاعفة » الى الآية (١٤٥) من سورة آل
٤٦	عمران .....
٩٩	٣ - الآيات من أول سورة لقمان الى الآية (١١) .....

### القسم الثاني

١٦٤ - ١٢١	من هدى الحديث الشريف .....
١٢٣	١ - حديث ( الحلال بين والحرام بين ) .....
١٣٢	٢ - حديث ( يا غلام إني أعلمك كلمات ) .....
١٤٩	٣ - حديث ( كنا مع رسول الله - ﷺ - فى سفر ٠٠ ) .....

### القسم الثالث

١٩٦ - ١٦٥	نصوص من الشعر .....
١٦٧	١ - من مرثية أبى ذؤيب الهذلى .....
١٧٧	٢ - من قصيدة عبدة بن الطبيب ينصح أبناءه .....
١٨٧	٣ - من تائية الشنفرى الأزدى .....
١٩٧	المراجع .....
١٩٩	محتويات الكتاب .....

## كُتُب للمؤلف

- ١ - من هدى القرآن الكريم  
تفسير بلاغى لسورة ( المؤمنون )
- ٢ - علم المعانى الجزء الاول  
دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعانى
- ٣ - علم المعانى الجزء الثانى  
دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعانى
- ٤ - علم البيان  
دراسة تحليلية لمسائل البيان
- ٥ - علم البديع الجزء الاول  
دراسة تاريخية لأصول البلاغة
- ٦ - علم البديع الجزء الثانى  
دراسة فنية لمسائل البديع
- ٧ - دراسات بلاغية  
بحوث بلاغية متنوعة
- ٨ - بلاغة تطبيقية  
دراسة لمسائل البلاغة من خلال النصوص